عبد العزيز هلال.





عبد العزيز هلال

الرجل الأثري

قصص

منشورات اتحاد الكتّاب العرب

دمشق ١٩٧١

رسوم الغلاف : لجينة الاصيل

الرجل الأمي

قصص الكتاب

أغنية للنهاية

أدارت ظهرها ، متجاهلة الفتى بدلال أنثى غنجة ، واسترخت فوق الكرسي مسندة رأسها الى سياج الشرفة ، فتدلى شعرها الكثيف ، المصبوغ باللون الذهبي ، مستسلما لنغمات أفعوانية ناعمة تراقصه بمرح ... قهقه محمود قهقهة عالية خبيثة ، ثم غمس الفرشاة في دلو الدهان الزيتي وراح يضرب بها على الجدار ، ويغني بصوت مرتفع أغنية غزلية ممطوطة النغمات .

قال المعلم :

ـ بالله يا محمود ، لا تصدع رأسنا .

ـ لماذا ؟ ألا يعجبك صوتي ؟

ـ صوتك ؟ أعوذ بالله من شر ما خلق !

وانطلقت ضحكات العمال صاخبة . التفتت صبرية نحو البناء الجديد تستطلع سبب الضحك ، فرفع محمود أطراف أنامله الى فمه ، فأدارت له ظهرها من جديد ، بكبرياء سرابي ، واستمرت في جلستها تلك المفخمة . تساءلت ، مع هذا ، في سرها : ما الذي يعنيه هذا المأفون ؟ وتعجبت من الجواب : يا للجراة ! أيريدني مصاحبته والابتلاء بكل هذا القدر من الدهان يلطخ بشرته وكساءه ؟ أية رائحة تجرح الانف !

أحست بنظراته عنيدة ، وقحة ، تحاول ثقب كنزتها الضيقة السوداء ، بل تمزيق تنورتها أيضا . وقاحة تثير أعصابها . انه ينظر اليها بصراحة تامة ... وهذا هو بالضبط ما يزعجها منه ، ما يجعلها تحنق عليه . نظرات تجعلها تحس في الحال بأنها مجرد خادمة ، امرأة وضيعة ، رخيصة ، يطمع في « قضاء وقت » معها . بخلاف نظرته الى سيدتها مثلا .. هذه النظرة مفعمة بالهيبة تغطي الشهوة . أيظنها أرخص من سيدتها ؟ اذا كان سوء طالعها قد كتب لها أن تكون خادمة فليس من مبرر للظن بأنها رخيصة .

ومع ذلك فان احساسها انغمس مرغما في الحقيقة الصريحة ، أنها خادم ، في الحساب الاخير . لقد سلخت من عمرها خمس

سنوات في الخدمة . كانت واحدة من جيش من البنات والصبيان ضاق بهم بيت الاهل وناء كاهل الاب . ولم يكن بد من وقوع الام في هذا الاغراء : بنت فلان أسعدت أهلها ، انها تجلب لهم خمسا وسبعين ليرة كل شهر ، وهذا هو المبلغ الذي يعطيه الحقل بطوله وعرضه . واقتنع الاب وتوجهت اليها الانظار .. انها واسطة هذه السلسلة من البنات اللعينات اللواتي لا يمكن تخديم صغارهن ولا تؤتمن المدينة على كبارهن . لم تكن صبرية تتجاوز الثانية عشرة اذ ذاك . وهكذا أشرقت عليها الشمس ذات صباح فاذا هي تتأهب لمغادرة القرية ، ثم تمشي على طريقها الترابي خلف والديها وهي مضغة طرية الفرحة بما في المدينة من حلاوة وللخوف من مجهول تقبل على رحمته ، وللحزن على مفارقة الاخوة والاهل والرفيقات . دخلت المدينة قروية صغيرة ساذجة ، لا تعرف المدينة الا اضواء وألوانا بهرتها في مرتين أو ثلاث أثناء زيارات خاطفة مع الاب تعينه على بيع خروف أو زوج من الدجاج وغير ذلك ، ولا تعرف أن الشعر الاسود يمكن تحويله الى شعر أشقر بعملية صباغ سهلة وبسيطة ، رغم أنها كانت تجن افتتانا بالشعر الاشقر ، تراه يتوهج فوق هامات بعض فتيات المدينة الانيقات المحمرات الخدود والشفاه ، وتتمنى حانقة لو ان الله خلقها بشعر أشقر تتباهى به على قريتها كلها .

ذلك زمان ولى .. مات . هي اليوم ، وان تكن خادما ، الا أنها لا تقل فطنة وخبرة عن سيدتها ، لا تقل قيمة عنها ، فضلا عن أن شعرها لم يعد أسود منذ وقت بعيد .

كانت الشمس ساطعة ، وحرارتها تقهر الشتاء . أحست

صبرية بالعرق ينضح تحت ابطيها فتضايقها لزوجته . وخطر لها أن تقوم الى ابدال الكنزة الصوفية بقميص خفيف ، الا أن الكسل كان قد بعث في أوصالها نشوته . أغمضت عينيها ، ونسيت محمودا وفرقته الصاخبة من عمال الدهان في العمارة المجاورة ، تلاشت أصواتهم المبحوحة وشتائمهم البذيئة . . . خيال أسعد انتصب في عالم ذاتها مسيطراً كامل السيطرة . هذا رجل يحبها . انه يعاملها باحترام . هو يختلف عن كل من سبقه من تلك القبضة من الرجال والفتيان المراهقين التي عبرت دهاليز أنوثتها ولم تخلف فيها سوى بعض من الآثار الخفيفة ، الباهتة ، كذلك الصدى الذي يتلبث فترة قصيرة في الجو بعد قرع جرس الكنيسة القائمة في الطرف الآخر من الحي . أبو سعدة يغازلها ، ولكن كما تحب أن يغازلها الرجل . . كما يغازل السيد سيدة . او طلب منها أن تكون زوجته لما بخلت بحياتها كلها فدية لهذا . لقد وعدها ، على كل حال ، وهو جاد في وعده . انه لا يلهو ، هي بعد هذه الخبرة ، غدت تميز بين لهجة الرجل الصادقة وبين لهجته الكاذبة ، بين النظرة الجدية وبين العابثة .

وداهم حلمها صوت عيشة ، تناديها من داخل المطبخ . . .

ـ ماذا تريدين ؟

وارتدت الى الواقع كأنه اكتشاف جديد . تفصدت المرارة تملأ النفس ، بينما كان صوت زميلتها يستهلك البقية من ثمالة النشوة :

ـ تعالي اشعلي موقد الغاز ، كرمى لله . السيدة تريد فنجان قهوة ، وانا لا اعرف كيف يشتعل هذا الموقد .

ـ حتى الآن ؟

ـ حتى الآن .

وكان السخط على رفيقتها مثل الدودة الوحيدة ، تسمم البدن وتحك العصب . يا لهذه القروية الساذجة ، متى تتمدن ! ورفعت جسمها عن الكرسي متسائلة بصوت صاخب :

ـ من أجل الله ، متى تتعلمين ؟

ودخلت المطبخ ريحا عاصفة ، وأخذت الكبريت :

ـ هكذا .. اليك .. هكذا .. هه ! أيحتاج الامر الى أكثر من شهر حتى تتعلمي هذا الشيء البسيط ؟

وضحكت عيشة متملقة ، ثم ضحكت في دهشة بدوية وهي تقـول :

ـ يفضح ريشهم على هذه الاختراعات !

ـ يا لك من جاهلة ! دعيني أصنع القهوة ، ابتعدي ، لا تفسدي مزاج السيدة الآن .

وحملت القهوة الى السطح .

كانت السيدة مستلقية على مقعد راحة من القماش الاحمر المخطط ، مرتدية قميصا خفيفا من الحرير البرتقالي فوق بنطلون اسود ، وهي تتصفح مجلة نسائية ، ووراءها ، على مدى السطح طولا وعرضا كان ولداها يتزلجان ، منسابين على البلاط انسيابات حلزونية رشيقة ، خفيفة ، كفراشتين ربيعيتين فتيتين . بدا المشهد

لعيني صبرية ، من مكانها وهي تبرز من بئر الدرج ، بديعا يبرق بالبهجة وكأنه احدى صور الاعلانات الملونة في تلك المجلات الاجنبية الزاهية التي تتراكم على السقيفة حيث تنام .

وضعت الصينية فوق منضدة بجانب سيدتها وانحنت تسكب القهوة . رمقتها السيدة بنظرة قاسية .. وقالت :

ـ نبهتك الى أن لا تقصري التنورة .

وخزتها الملاحظة . قالت :

ـ يبدو أن الغسيل ...

ولكن السيدة قاطعتها محتدة :

ـ مهما يكن السبب ، لا أريدك أن ترتديها .

وارتدت عيناها الى صفحات المجلة ، وهي منفعلة ... انها تمقت ان ترى خادمتها وهي تحاول تقليدها في كل شيء ، اذا كانت قد تغاضت عن تعديها على أدوات زينتها فانها لا تستطيع السماح لها بالظهور بتنورة قصيرة فاضحة . حقا ان زوجها ـ وهو أحد كبار المهندسين المقاولين ـ كثير المشاغل ، ويتمتع بذوق رفيع ، الا أن المرء لا يأمن كليا من نزوات الرجال لمجرد ثقته في سمو ذوقهم .

لم تقل صبرية سوى كلمة :

ـ طيب .

بانكسار ، وغيظ مكظوم . وانحدرت الى شرفتها ، ووقفت

تتطلع الى الطريق ، فرات أبا سعدة يقف على ناحية من الرصيف يبتسم لها . فابتسمت له ، رجعت الاشياء تزهو وتتحرك كعصافير الدوري بعد زخة لطيفة من المطر الناعم . وتذكرت أن ثمة من يراها الآن في المبنى المقابل ، الجديد .. فأرسلت نظر ةحذرة الى العمال هناك ، اذا بمحمود يهز راسه مبتسما ، فمطت بوزها استهزاء ولا مبالاة ، وعادت تحدق الى حبيبها أسعد متسائلة . طلب منها ، باشارة من راسه ، أن تهبط اليه ، ومضى الى السيارة فأدخلها مرآبها ، ثم أغلق الباب الخشبي العريض تاركا فتحة تتسع لمرور شخص ، وبعد هذا أشعل سيكارة وقبع على طرف المقعد الخلفي ينتظر .

هبطت صبرية الدرج بسرعة .. وسعت اليه . أحست بجسمها خفيفا مثل ريشة في مهب الريح . ودومت في قلبها تلك النغمات الخفية ، الحارة ، تفعم روحها بالصخب الخصب كلما التقت به ... نغمات حلوة ، مثل ضربات لطيفة ، رشيقة ، على أوتار قانون ... أغنية عذبة ، جديدة ليس فيها ذلك النشاز في الاغاني السابقة ، الا أن ايقاعها مثقل بالرهبة الحية ، تشد قلبها الراعش الى أسفل فتكاد تمزق بهجته . لكنها لم تكن تبالي .. ظلت تندفع هذا الاندفاع الى أسعد في كل مرة يناديها .. مثلها الآن .. وكأن ذلك قدر كبير ، بل قدرها الاكبر .

ألقى محمود بالفرشاة داخل الدلو ، وتسلل تحت عيني معلمه الى الشارع . لم ير صبرية . وأسرع متلفتا الى مداخل البنايات على جانبي الشارع ، يبحث عنها . ولكن صبرية لم تكن في أي مكان مكشوف حتى نهاية الشارع . فراح يتمشى على الرصيف

مراقبا المداخل كلها ، مدخنا التبغ بشراهة . ثم أشعل سيكارة ثانية ، وتوقف عن الحركة العبثية المتعبة ، مسندا ردفيه الى سياج احدى حدائق البنايات ، وقد تعكر بياض عينيه باحمرار عنيف ... انه يريدها . يريد صبرية بكل جوارحه ، ومهما طلبت من ثمن ... عشر ليرات ، عشرين .. سيعطيها . المهم انه يجب أن ينالها ، أن يعبث بذلك الكبرياء يشمخ به صدرها العارم ذو الناهدين المتلعين كقمتي جبل بركاني . لقـد عرفته مهنته على خادمتين قبلها ، نالهما بسهولة ، وبثمن بخس لم يتجاوز الليرتين . بيد أن هذه العصية خبلته ، وهو يريدها بقوة لا تقاوم .

انشق باب المرآب ، أخيرا ، عن فتحة ضيقة مرقت منها صبرية بحذر ، ومشت بعد ذلك على الرصيف الآخر بخطوات رخوة ، يشع وجهها بابتسامة رضية ، هنيئة ، وكان محمود ينظر اليها بدهشة صاعقة ، حين مرت به مطت بوزها باستهزاء ، وتابعت مشيتها تلك ، صاعدة الى بيت سيدها .

احس محمود بالاهانة تحط على قواه ، وتضغط عليه تريد أن ترميه على الرصيف . ولكنه شـد جسده ناهضا ، ووقف متصلبا تنتفض عضلات ذراعيـه المتينتين انتفاضات سريعة من الغضب . ثم اندفع الى المرآب . أطل من فتحة الباب الى الداخل ... كان السائق يستريح على المقعد الخلفي ، في السيارة ، مدخنا التبغ بهدوء . اجتاحته ريح صقيعية مزقت رجولته ... ومشى خلف حقده . صعد الدرج قفزا ، وضغط بكفه على زر الجرس ضغطا قويا . وفتحت له عيشة .

ـ أين سيدتك ؟

ـ على السطح ، لماذا ؟

وفوجئت السيدة بالعامل الملطخ بالحقد والدهان :

ـ ماذا تريد ؟

ـ خادمتكم ، صبرية ، كانت تنام مع سائق سيارة جار لكم ، في المرآب ، الآن ، رأيتها بعيني هاتين .

ـ انت كاذب .. وقليل أدب ، كيف جئت هنا بلا استئذان ؟

ولكن العامل لم يحول نظرته التي تتفصد بقوة التحدي عن عينيها الغائمتين وراء نظارتيها المعتمتين . كان يلهث مثل كلب صيد طارد فريسته شوطا طويــلا جدا فلم ينل سوى غبار قدميهــا الرشيقتين .

ـ لقد رأيتك انا مرارا وانت تغازلها وهي تصدك . هيّا امض والا استدعيت الشرطة .

ـ استدعيهم . سأثبت لهم بالبرهان ...

ـ كاذب !

ـ لماذا لا تتحققين من الامر قبل أن تتهميني بالكذب ؟

ـ حسنا .. سأتحقق .. ولكن ما شأنك انت من الامر كله ؟ هيا انصرف اذن .. هيا !

وبعد أن انصرف هبطت اليها ..

كانت صبرية مستلقية على سريرها تحلم .. تستعيد في خيالها

تلك اللحظات الرائعة ، في السيارة ، وعلى وجهها تلتمع انعكاسات باذخة اللون ، مثل اناء تراكمت فيه أطيب فواكه العالم الناضجة المبللة بالندى . وكانت الموسيقى قد اتخذت ايقاعا أعمق واهدأ ، واكثر صفاء حتى صارت منسجمة مع أنفاسها وحركة صدرها الرخي .

لم تر السيدة حاجة الى أي سؤال . لهذه الامور آثارها الخاصة التي لا تخطئها عين التجربة . ينبغي أن تكون حاسمة ... اذا كانت قد تهاونت تجاه الزينة وطريقة اللباس ، ازاء الوقفات الطويلة على الشرفات ، فانها لا يمكن أن تتهاون ازاء هذا الخطر الحقيقي ... صبرية خطرة الآن ، وبقاؤها في البيت أصبح خطرا أيضا .

ـ هيا ، لمي أشياءك وانتظري مجيء سيدك . سأجعله يأخذك الى اهلك في القرية ويسلمك لهم يدا بيد . سوف يشهد عمال الدهان عليك .

ـ أرجوك يا سيدتي ، أبوس يديك ، أهلي يقتلونني .

الدموع لم تعد وسيلة لأية رحمة . وفي ذروة الغضب والانفعال كانت السيدة تضحك من دموع تسح بالقذارة والنتن . فرفستها على كتفها حينما زلقت الى قدميها تريد لثمهما :

ـ ابتعدي عني ، وباء يأخذك ، أنت تستأهلين الذبح .

ـ آه يا سيدتي ، ثقي بأن أسعد يريد الزواج مني ، أؤكد لك .

ـ ليخطبك الى أهلك ، ليذهب الى هناك ويخطبك ، اذا كان حقا يريد الزواج منك .

ورجعت السيدة صاعدة الى مقعدها المريح على السطح .

انكفأت صبرية ، تنتحب وتولول ، فوق السرير ، وهي تشد شعرها بيديها المتشنجتين ، فيتساقط على الشرشف الابيض وتظهر جذوره السوداء بجلاء وقح ، سافر ، لا يتحمل اي نفاق .

واحست عيشة بشفقة عظيمة على زميلتها ، وخافت عليها ، حتى أن قلبها هي شرع يرتجف . ودت لو كان في يدها ان تفعل شيئا ما من أجلها . ولكن ماذا تفعل ؟

ـ صبرية .. الا تستطيعين تدبيرا ينجيك من غضبة أهلك ؟

فزعقت صبرية بعنف ، كأن عيشة أم المصائب في هذه الدنيا :

ـ ماذا تظنين الواجب فمله ؟ ما عساني أفعل ؟

ـ ما أدري . لكنني اظن انه لا بد من فعل شيء .

قالت ذلك بانكسار ، ولهجتها ترشح دمعا . فقالت صبرية مطامنة من حدتها :

ـ هناك منجى وحيد ... أن يخطفني اسعد قبل حضور السيد .

ـ أيفعل ؟

ـ لماذا لا يفعل ؟ انه يحبني ويريدني . ربما يفعل .

ـ خبريه اذن .

ـ اذهبي انت اليه .. أرجوك ، انا لا أجرؤ على الخروج اليه الآن .

ولكن عيشة رجعت تقول :

ـ ابن الحرام ، تصوري انه أنكر صلته بك . ولما رجوته أن ينقذك من الخراب طردني ، قال : ان التي تقدر على فعلتها يسهل عليها التخلص من مثل هذه المشكلة الهينة .

ـ أقال لك هذا حقا ؟

ـ إي بأبي !

وامتدت الخيبة شبكةً تلف صبرية ، تخنقها وتكفنها .

تساءلت عيشة ، بعد هذا ، باشفاقها اللعين :

ـ ماذا ستفعلين الآن ؟

وصبرية لم تعد قادرة على البكاء ، أحست بأن حنجرتها توشك أن تنفجر مثل جوزة مضغوطة ... كانت الخيبة هنا ، وعينا أمها وغضبة أبيها هناك ، في القرية ، وأبرقت في خيالها ، للحظة واحدة قصيرة ومعتمة ، لمعة ، تشبه نصل سكين .. وبما سكين ! وكان ثمة هذا الاختناق المتعاظم ، وأخيرا سؤالٌ ناحب ملح ، كعويل البوم الابدي في الليالي الخادعة ، سؤال عيشة المجرِّح بالشفقة اللعينة :

ـ ماذا ستفعلين الآن ؟

وزعقت صبرية وهي تصفع خديها :

ـ لا أدري ، لا أدري .. اتركيني وحدي ..

ودارت حول نفسها دورتين ، ثم جمجمت :

ـ سأخرج الى الشرفة أشم الهواء .

كانت شمس الظهيرة فوق ، الآن ، تميل عن سمتها . وكان عمال الدهان يغنون أغنية حزينة من أغاني فريد الاطرش ، وهم منهمكون على نحو آلي بفرش الدهان الزيتي اللامع على الجدران الاسمنتية ، ومحمود ، بينهم ، منعزلا ، منطويا على نفسه المنفية في مجاهل غابات وحشية ، لا يسمع حتى الأغنية التي تتردد كلماتها المؤسية من أجله هو . كان صامتا مثل كهف تحتضر في داخله آلاف الحيوات القديمة الخثرة .

وعندما انتهت الاغنية ، وتنفس العمال وهم يرمقون محمود بنظرات مستهترة ، سمعوا صدى هشا لصوت ارتطام جسم طري بأرض صلدة ، اعقبته صرخة مخنوقة بدت وكأنها انفقاءة دمل . وجموا لحظة ، ثم اندفعوا الى الشرفة ، وكذلك فعل سكان العمارات المجاورة ، وعيشة ، والسيدة فوق السطح ...

كان جسد صبرية يتلوى فوق البلاط ، اسفل البناية ، وكانت اناتها التائهة المتحشرجة ، كزحير حيوان لم يذبح جيدا ، هي كل ما يسمع في هذه اللحظة الهائلة من الصمت المروع ... قبل أن يتحرر الناس من ذهولهم وتولول عيشة ، ويتأوه الآخرون ، وتتخلق عشرات الاسئلة التي لا تجدي ، تظل مجموعة مسلية من الكرات تتلاعب بها يدان تفتقران الى رشاقة البهلوان المحترف ... بعدئذ شرع الجميع بالحركة والصخب من جديد .

دمشق ١٩٦٣

حفلة الكورال

شرعت الساعة تقارب الثانية ، وكان الموظفون يقفلون أدراج مكاتبهم ، استعدادا للانصراف .. واقترب من بينهم شاب يافع نحو زميل له كهل ، قال بلطف :

ـ أبا مروان .. أين تنوي السهر الليلة ؟

كان أبو مروان موظفا عتيقا من المرتبة السابعة ، من أولئك الذين لا تتلاءم طبيعتهم مع التفكير بعيـدا عن الاشياء اليومية ، ينحصر اهتمامهم في عدة أشياء تقليدية مصنفة ، معروفة كما

يعرف كل منا من اين تشرق الشمس واين تغيب ؟ ماذا يشتري اليوم للبيت ، ما هي اسعار المواد الغذائية ، متى يقبض المعاش ، متى تكون الترقية مستحقة ، ومتى يكبر الاولاد ويصبحون موظفين .. هذه وأشياء من قبيلها . يغادر البيت الى عمله قبيل الثامنة ويرجع بعد الثانية بدقائق تتحكم في عددها حركة الباصات ، يتناول طعامه وسط ضجيج هائل وربما خصومات عنيفة فيما بين أولاده الثمانية ، ثم يتخذ مكانه على ذلك المقعد الخشبي الطويل ، المحشَّن بفراش من القطن ، ساعة أو ساعتين ، لا يفعل شيئا سوى الجلوس والتثاؤب ، وقد يشده النعاس الى التمدد من أجل اغفاءة قصيرة ، وبعدها يبرح المقعد الى المقهى أو السينما ليعود في الساعة التاسعة الى البيت .. ذلك ما يحدث كل يوم .. وكأن ذلك برنامج قدري لا فرار من تنفيذه بدقة واخلاص .. انه يعيش لان العادة هكذا .

طفح وجهه بابتسامة كشفت عن أسنان خربة ، وقال للشاب :

ـ كالعادة .

والتفت الى ارتداء معطفه .. قال الشاب وهو يخرج مغلفا من جيبه :

ـ طيب ، ما رايك بسهرة في المسرح ؟

ـ المسرح ؟

نبر ابو مروان بدهشة تشبه الاستنكار وضحك :

ـ لا ، كَثَّرَ خيرَك ، المسرح سخافة مضجرة تثير شهيتي للنـوم .

شرح له الشاب :

ـ ليست الدعوة من اجل مسرحية . انها حفلة منوعات ، غناء ورقص . وقد حصلت على بطاقتين ، لكني وخطيبتي مرتبطان بموعد . فما رايك باخذهما ؟ تستطيع ان تذهب انت والسيدة ام مروان . انها حفلة رفيعة ، المدعوون اليها كلهم من كبار الشخصيات .

وفي الحال سقطت الشرارة على الفتيلة .. ابرقت عينا ابي مروان وهتف :

ـ صحيح ؟..

وحين دخل البيت اخبر ام مروان خبر الحفلة ، ودفع اليها البطاقتين :

ـ انظري .

تناولتهما ام مروان من غير حماسة ، والقت نظرة عليهما وقالت :

ـ ومن اين حصلت عليهما ؟

ـ اهذا سؤال ؟ ارسلوهما الي .. لقد نسيت المغلف في الدائرة .

احست الزوجة احساسا غامرا بالعذوبة . بيد انها في اللحظة التالية مباشرة تلوعت بادراك وقح ، مثل شوكة في الفراش ... ادركت انها لا يمكنها الذهاب الى حفلة من هذا الطراز .. هي حتى الآن ، لم تملك ما تستطيع الظهور به بين النساء .. فضلا عن انها لا تعرف كيف تتصرف بينهن . رفضت مصاحبة زوجها بعناد .

استقر على مقعده ، بعدما تناول الغداء ، وفكر : ان صحبت واحدا من ابنائي فلن أضمن أن يتصرف تصرفات رصينة ، غير مخجلة . واستمر يستعرض جميع الحلول الممكنة لهذه المعضلة التي اعترضت مجرى يومه . وبعد ساعة قرر انه يجب اصطحاب صديقه الحميم أبي عدنان . أحس بارتياح عميق . أبو عدنان خير من يستحق هذه المناسبة المبهجة . وقام الى دكان السمان يهتف لصديقه ، وتواعدا على أن يمر أبو عدنان على بيته لينطلقا منه الى المسرح .

. . .

قبيل الوقت المحدد لبدء الحفلة بنحو ساعة ، حضر ابو عدنان ، فاستقبله أبو مروان بحفاوة بالغة ودعاه الى شرب القهوة ، في غرفة الضيوف التي بدت مثل متحف لمفروشات الربع الاول من هذا القرن ، بلونها الداكن وزخارفها وضخامتها ، تحرسها صورة فحمية كبيرة ، على الجدار ، ضمن اطار من الموزاييك ، تمثل المرحوم جد مروان في لباسه العثماني وشاربيه الطويلين ، لولا انعقافهما فوق وجنتيه لكان محتملا أن تلامسا أذنيه .

احس ابو مروان ببهجة رائعة تخفف من وزنه فوق الكنبة، وهو يجلس بجانب صديقه . هذا هو اخيرا يجد شخصا يقدر الموقف افضل من أم مروان تلك الساذجة التي تخشى الاجتماع بالناس . حسنا ، دعها ، هذا ابو عدنان . والتفت يقول له ، للمرة الثالثة أو الرابعة :

ـ أهلين وسهلين ، أبا عدنان .

وعندها فقط آن لهما الانطلاق في ثرثرتهما الهادئة ، البسيطة ، من السؤال ـ مرة بعد مرة ـ عن الصحة الشخصية والعائلية الى الاحوال المعاشية .. اسئلة عادية تطرح دائما بالحماسة نفسها .. ولكنها لا تستهدف اجوبتها أبدا ما دام دافعها مجرد الكلام .. مهما اتسعت الاسئلة والاجوبة في المكان والزمان . وكانت الاحوال المعاشية تعطي للثرثرة طابعا حماسيا يخرج بها عن الهدوء أحيانا ، وان بقي في حدود البساطة .. ففي الاغلب تتحول الكلمات الى هجوم مقذع ولاذع على تلك الكائنات البشرية التي تعيش فوقهما وفوق أمثالهما ، ولكنه هجوم يظل سلميا ، لانه لا يعدو فشة خلق ، مثل حمام بارد في ظهيرة قائظة ، يغرق جسدك العاري ، فينعشه ويسري عنه الضيق ، لينسرب ماؤه بعد ذلك في البالوعة وقد زايلته اندفاعته وحِدَّته تماما . ذلك أن العيش قاس يا صاحبي ، وهو أقسى ما يكون على ذوي الدخل المحدود من العازبين ، فما يكون الحال بذوي العائلات ؟. ان الامر حينئذ يشبه أن يكون هكذا : رجل نحيف مصاب بقصور في الكبد ، وفاقة في الدم ، يحمل على ظهره امرأة وعددا من الاولاد ويسير على طريق طويل يجب أن يسير عليه بلا توقف ، لانه مرغم على ذلك بطريقة ما ... والعجب الذي يحير الحكماء انفسهم ان هذا الطريق هو الذي يعطيه حظه ، فاما ان يكون وعرا ، واما ان يكون سهلا .

كان ابو عدنان ذا خيال نشيط هذه الليلة ، ربما لانه بدأ يطالع بعض الكتب التي يقتنيها عدنان . وتساءل أبو مروان :

ـ طيب ، ما دام الامر على هذه الصورة لماذا نسب الناس الآخرين ؟ المشكلة منتهية اذن .

وضحك . لكن ملامح صديقه اكتست بالجدية وهو يقول :

ــ اننا نعتقد ، صوابا أو خطأ ، أن هؤلاء الآخرين مسؤولون عن طريق كل منا ذاك ، عن حظ كل منا .. ألسنا نعتقد هذا ؟ بل ربما نحن نعتقد اكثر من ذلك ، فهناك ــ كما يقول عدنان ، عدنان مثقف يعجبك ــ هناك معادلة رياضية : اذا كان ثمة انسان متخم فلا بد من وجود جائع أو جياع الى جانبه . اذن يجب أن يكون هناك خلل في هذه المعادلة . ولكن من ذا الذي يجب ان يقوم بهذه المهمة ، باصلاح الخلل ؟

قال أبو مروان :

ــ الآخرون ، المتخمون طبعا .

ــ ولكن الآخرين لا يمكنهم ذلك . وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . عدنان يرى أننا نحن ، لا الآخرون ، نحمل المسؤولية . والحق ، يا أبا مروان ، اني تساءلت مرة أو مرتين اخيرا : أليس عدنان محقا ؟ لماذا لا نكون نحن المسؤولين عن اصلاح هذا الخلل ؟

هتف أبو مروان :

ــ استغفر الله ، ماهذا الكلام يا أبا عدنان !

وارتعد قلبه خشية من السؤال المطروح .. ومن التفكير بأية اجابة . وهما ، أولا وأخيرا ، يتكلمان لمجرد الكلام ، لملء الوقت حتى يحين ميعاد الحفلة . أبو عدنان توصل الى نقطة خطيرة ، خارج الحدود ، لسنا نحن من يجب عليه البحث فيها ، نحن نتكلم لمجرد الكلام ، أما الامور الخطيرة فلنتركها للرجال المختصين .

ولكن ، يا لهذه الليلة ! يلح ابو عدنان على النقطة نفسها :

ـ نحن ، بلا جدال ، عاجزون عن مهمة لا تخضع لارادتنا ... استرحنا دائما على قاعدة مغرية مثل فراش وثير أو قطعة من البلورية : كل من أخذ امنا صار عمنا .

ـ هه ، رحم الله اباك ، هذا هو الكلام الصحيح .. ما دخلنا نحن ؟

ـ ومع ذلك ، فنحن لا تقوى على السكوت على تصرفات أناس تبدو وكأنها موجهة ضدنا ، عن قصد وتصميم ، فترانا ، من غير ما ارادة ، منقادين الى شتمهم ونبش اعمالهم السيئة .

فوافقه ابو مروان :

ـ صحيح . خذ مثلا ذاك المدّعي الجلف ، ذا الوجه الناشف ، زيد بك ..

وتلكأ لحظة قبل ان ينجح في الوصول الى غايته :

ـ قبل ان يكون امينا عاما للوزارة ، ماذا كان ؟ الله وحده يعلم كيف كان سيعيش لو لم تزوّر الانتخابات فيصبح ذات يوم عضوا في المجلس النيابي ليصير هذا واسطة الى منصبه الحالي . انظر اليه اليوم .. انك لا تتمكن من السلام عليه الا باستدعاء رسمي لماذا ؟ الله أكبر من الجميع . الانسان يجب أن يذكر الآخرة دائما . لماذا لا يتقي الله ويكون متواضعا ؟ أيلزمه من يذكره بأصله ؟

ـ عندك الحق يا أبا مروان . ان الانسان ليتساءل أحيانا ان كان مثل هذا الشخص يفكر بالله لحظة واحدة .

ـ لا .. ابدا .. امثاله يتجبرون وكأنهم الله نفسه ، استغفر الله العظيم ، ينهبون الخلق ، ويحللون ويحرمون على هواهم ، يوظفون اقرباءهم وأصدقاءهم وينفعون محاسيبهم . ونحن ؟

ـ آها ! يسلم فمك ، يا ابا مروان ... هكذا ترانا نعود الى تلك النقطة نفسها ، الى تحديد المسؤولية واصلاح الخلل .

وارتاع أبو مروان :

ـ لا ، داخل على عرضك ، هذا ليس من شأننا . أفضلُ منه الذهاب الى الحفلة ، فقد حان موعدها .

ولكن أبا مروان ، في نهاية الحفلة ، أصيب بخيبة مزدوجة .. فان الحفلة لم تكن مما يسليه ، لان الصراخ الذي استطال عدة ساعات من هذه المجموعة التي وصفها عريف الحفل بفرقة « الكورال » هو نفسه ذلك الصراخ الذي يملأ به الاولاد جنبات البيت طيلة كل نهار ، بالاضافة الى أن مكانه لم يكن بين شخصيات خطيرة فهذه كانت تملأ الصفين الاول والثاني فقط . وكان من مكانه قد استطاع أن يرى بين هذه الشخصيات أمين عام وزارته وبجانبه السيدة قرينته . ولعل هذا هو وحده ما أمسكه ، فلم يغادر المكان ، متصبرا صبر أيوب ، وهو يتثاءب دون انقطاع .

واذ شرع الناس يغادرون صالة المسرح ، قال لصديقه :

ـ تريث قليلا .

ـ لماذا ؟

ـ سننتظر خروج الشخصيات الكبيرة .

ـ ما لنا ولهم ، هيأ فاني أكاد أصاب بالدوار من حفلتك الملعونة هذه .

ـ انا مثلك ، ولكني أريد .. أريد تحية زيد بك .

ـ لا ضرورة لهذا الآن ، هيا .

ـ يا اخي انتظر ، ماذا تخسر .

كان أبو مروان يريد أن يلفت نظر زيد بك الى أنه هو الآخر مدعو الى الحفلة ،هذا الامر ذو اهمية خاصة ، اذ يوحي للامين العام بأن مستخدمه الصغير ليس أي مستخدم من هؤلاء المستخدمين العاديين . والى هذا فهو يريد ان يحييه ويسأله عن الصحة لان زيد بك شخص خطير ، في يده جميع أمور الوزارة من توقيعات وامتيازات استثنائية في النقل والتوظيف والتسريح الخ ..

وقف الصديقان عند باب الصالة منتظرين حتى مرت جماعة الشخصيات الخطيرة ، وبدا أبو مروان يرفع يده الى رأسه ويهبط بها الى صدره محييا ، راسما ابتسامة عريضة على فمه ، تطل من ورائها اسنانه المهترئة ، ولكن احدا من هؤلاء لم يكد ينتبه اليه ، حتى مر زيد بك ، فهتف أبو مروان :

ـ يسعد مساءكم ، زيد بك ، كيف الصحة ؟

وتنبه زيد بك ، فابتسم ابتسامة رقيقة ، متكلفة ، وتابع طريقه وحديثه مع شخص يسير بجانبه وراء قرينتيهما . ولكن النشوة دفعت بأبي مروان ، محنيَّ الهامة ، الى يد الرجل واخذها بين يديه ، دون علم صاحبها وارادته ، وصافحها بحرارة ، وبدا في

لحظة خاطفة ، وكأنه يهـم بلثمها ، فالتفت اليه الرجل الخطير وابتسم مرة اخرى تلك الابتسامة الرقيقة المتكلفة ، ساحبا يده بلباقة ، وتابع سيره .. في حين تلفت أبو مروان الى الناس مزهوا ، يطفح وجهه العريض بأمواج حمراء من السعادة ، وتخبّل قليلا ؛ لا يدري كيف يسلك السبيل الى الخارج حتى امتدت يد أبي عدنان المعروقة تمسك بذراعه وتجره الى الباب برفق .

دمشق ١٩٦٣

الرجل الأثري

وضع ابراهيم ثقل ضجعته على أحد فخذيه ، ممددا ساقه الاخرى الى مداها الاقصى ، وهو مشغول بالتقاط النمل الذي تجمع حول قطعة يابسة من الخبز ، وكلما أمسك بواحدة نظر اليها ضاحكا ثم أدخلها في زجاجة خمر فارغة يحتفظ بها باليد الثانية . بدا منهمكا في هذا العمل انهماكا صارما وكاملا ، غير عابىء بالحرب اللاهبة التي تخوض غمارها مدينتنا نصف الصحراوية مع الشمس. كانت الشوارع المتربة خاوية ، وبين دقيقة واخرى تهب زفرة متعبة

من فم هذا الشارع او ذاك ، نافخة التراب في وجه الشمس ، بحقد ... لم يكن في استطاعة المدينة أن تفعل أكثر من هذا .
وكان ابراهيم نفسه يتلقى ، دونما سبب واضح ، بعض هذا الحقد ، بلا اكتراث .. لا يبالي أن يدفنه التراب ، وأن يشوى جلده ، وهو جالس في مكانه هذا ، تحت جدار البيت ، في ركن متطرف من حي الجُبَيلة ، أكثر الاحياء تطرفا في جلافته ... بل كان يضحك ببهجة كلما أطبق بكفه على نملة ويهتف : « قبضت عليك » ، فتهتز عضلات كتفيه وصدره وبطنه الرخوة الهزيلة ، التي لم تكن بقايا الثوب اليتيم لتستتر منها سوى أقلها .

عند منعطف الشارع ، على بعد عشرين خطوة ، ظهر رجل يحمل مطرقة فولاذية ضخمة وأزميلا طويلا يقارب المتر ، ومزودة صوفية ، يكسو التراب جسمه واسماله المبللة بالعرق ... بدا بسماره الكالح وبجلده المخدد ونحافته الحادة وخشونة مظهره المغبر كأنه مصنوع من الطين ، منذ عصور بعيدة قد تبلغ العصر العاشر قبل هذا العصر . واذ اقترب من ابراهيم صاح بصوت أجش :

ـ قم يا ولد وخذ هذه المطرقة عني .

رفع ابراهيم راسه ونظر الى أبيه بامتعاض ، ثم هز كتفيه ورجع الى عمله قائلا :

ـ ما شأني .

جمجم الاب وهو يمر به غير متوقف عن المسير :

ـ لا عاش عمرك وعمر شأنك .

ودفر الباب الخشبي المغلف بالتنك دفرة جعلته ينفتح دفعة واحدة حتى اصطدم بنهايــة كومة الحطب خلفه ، فزعق وناس نوستين او ثلاث وهو يئن كقطة بائسة قبل ان يسكن . ولكن لطوف الأدغم لم يشأ دخول بيته دون ان يحذر ابنه :

ـ يا ولد ، قم ، ادخل البيت .. اتنوي شي نفسك هنا ؟

لم يرفع ابراهيم رأسه ، هذه المرة ، كانت أنامله تحكم الحصار على نملة ذكية :

ـ ما شأني ؟.

ـ اذن خلك هنا ، لا بد وأن تصبح طعاما لهذا النمل .. ان شاء الله .

لفظ عبارته الاخيرة كالمصلي يلفظ عبارة « آمين » . والقى بأدواته في زاوية من الدار ، ودخل الحجرة ، فألفى زوجته وأولاده الآخرين يغطون في النوم والعرق على حصير مبلل بالماء .

تخلص من ثوبه بجرة واحدة فظهر جسده عاريا الا من سروال كتاني أبيض يصل الى ركبتيه ثم غرف من الخابية المزملة ، المركونة بجانب العتبة على كرسي من الخشب ، ملء طاسة من الماء البارد وصبه على رأسه وعنقه . وبعد أن شرب ، تمدد على الحصير ، وتمطى قليلا . لم يلبث أن شعر بارتيــاح بعث رخاوة ثقيلة في أوصاله وأصبح جسمه الآن جزءا من الحصير والارض .

أحس لطوف الأدغم برخاوته تؤكد له بصورة مجسمة بلوغه الاربعين . بعد الاربعين يسير الرجل الى الشيخوخة بعجلة تتغلب

على ابائه . وهذا الامر يدعو الى القلق حجّارا مثله يحتاج الى كامل قوته ، ولديه خمس بنات مقابل هذا الاهبل ، ابراهيم . هو منذ طفولته يزاول هذا العمل في قلع الاحجار واستخلاصها عنوة من براثن جبل البشري ، كما فعل أبوه وجده . يتعب كل يوم تعبا يهد حوله فيؤوب الى البيت وهو يكاد يحبو على أربع .. حتى اذا ما تمدد على هذا الحصير وشعر بالراحة تسري اليه بكل هذه الالفة والحنان ، ورأى حواله عددا غير قليل من المخلوقات يحيا به ، بتعبه ذاك ، تبدد كل احساس معاد لعمله وحمد الله : « الحياة شاقة جدا ، هذا صحيح ، ولكنها فانية على كل حال .. والآخرة خير من الاولى ، وهي للصابرين . » بيد أن مشكلته بابنه الاكبر تظل ، مع ذلك ، همَّ حياته .. هذا المعتوه الذي لا يصلح لشيء . من يساعدني اذن عند المرض ؟ من يحل محلي اذا ما شخت واهترأ بدني ؟ الحجر شيء صلب ويحتاج الى من هو أصلب منه . وبناتي ، بناتي الخمس ، مجرد بنات .. ما عسى أن يأمل المرء من البنت ؟ تظل قابعة في البيت ترعى فيه حتى تصبح مهيأة لرفع فخذيها ، عندئذ .. هه ! ولا كأنك يا بنتي وجدت . آه صحيح .. عندي طفل جديد ، ذكر . يقولون : ها هو بدأ يحبو ولن تمضي أيام قليلة ، غمض فتح ، حتى تجده أصبح رجلا يسعى معك . أنا لا أثق بشيء من هذا .. انه طفل سقيم ، ولا يأمن المرء عليه من الموت الذي اصطاد مثله اثنين من قبل ...

* * *

أطل ابراهيم من باب الغرفة وهو يحتضن القنينة مسدودة بخرقة ، ودحرج نظرة ضاحكة فوق الاجساد المخدرة . وسمع

شخير ابيه عاليا منتظما . كان ثمة سبب اولوجه الغرفة نسيه الآن وتذكر شيئا مكانه فهرع الى كومة الحطب ، بين التنور وباب الحوش . وضع القنينة على الارض ، وانبطح زاحفا يغلغل راسه وجسمه تحت اغصان الغرَب الجافة . على انه تراجع فجأة ، ومط عنقه الى اعلى يتفقد زجاجته ، لقد ساوره الخوف عليها ، وحبا نحوها ، ضاحكا بسرور اذ اطمأن الى وجودها ، حتى كاد وجهه يلتصق بها ، وجعل يحدق الى النمل وهو يتحرك حركة نشيطة بعضه فوق بعض في ضيق وغضب .

احس بالعطش مجددا ، وعندئذ تذكر انه ذهب الى الغرفة دون ان يشرب . وحين خطا الى الداخل رأى امه قاعدة ترضع أخاه . رفع القنينة حتى يلفت نظر امه الى سجيناتها وهتف فرحا :

ـ اترين ؟

وضحك . غير أنها اكتفت بنظرة استياء قصيرة ، واطرقت تحط عينيها على جسم الرضيع ... كانت امراة بالية رغم انها ما تزال في الثلاثين من عمرها ، وكانت بشرتها شائطة لفرط ما عرضتها للشمس ، ولكن عينيها السوداوين الواسعتين حافظتا على سحرهما القديم وظلتا الفيء الندي في صيف هذا الهيكل الصحراوي .

شرب ابراهيم ، ثم فتح الزجاجة وشرع يسكب الماء في داخلها ، مخاطبا النملات :

ـ اشربن .. اشربن .

صرخت أمه :

ـ يا ولد ، ماذا تفعل ؟ الله أكبر ! تنكة الماء بفرنك ، يا ويلك من الله !

فرصة طيبة للصراخ .. بل ومعقولة أيضا ، الصراخ متنفسها من هموم هذا البيت ، فلم تتوقف ... استمر سيل الشتائم والادعية بالويل والموت يتدفق من فمها ، حتى تململت أجساد النائمين وارتفع بعض الرؤوس يستطلع أصحابها سبب الصراخ بأعين رمداء متقيحة يستبيحها الذباب دون وازع . ولكن ابراهيم انسحب من الغرفة حالما مدت يدها تهزها في الهواء مهددة بالضرب، انسحب صائحا :

ـ ما شأني ، ما شأني .

وكانت النملات مهددة بالاختناق ، فراحت تتحرك بعنف وعشوائية ، تقاوم الموت ، ونجح بعضها بفضل رجرجة الماء في الالتصاق بأعلى الجدران ، وبدأ يحاول التسلق الى الفوهة بمنتهى الصعوبة . الا أن ابراهيم قلب القنينة على الفوهة ثم أعادها الى وضعها الاول وضحك بسعادة :

ـ اسبحن ، اسبحن .. الجو حار ، أليس كذلك ؟

وضحك وهو يقول :

ـ تنكة الماء بفرنك . السقاء يحملها على حماره من الفرات . لماذا ؟ لنشتريها ، كل تنكة بفرنك وحياة عيونكن ، ولكن حذار .. لا تبحن هذا السر لأحد ، هه ؟ تنكة الماء بفرنك . والسقا يجلبها من الفرات . الفرات العريض الذي يغرق فيه ألف بعير .

واطلق ضحكة صاخبة ، وراح يهزهز الزجاجة ويرجها بعد ان امسكها بكلتا يديه وعلى نحو مائل .. ثم انه توقف عن هذا فجأة، وحدق الى كومة الحطب . وعاد من جديد يزحف الى ذلك المكان نفسه تحت الغرب ، محتضنا الزجاجة في هذه المرة حتى تمكن من حشر جسمه حتى الاليتين ... وتوقف ينظر الى محفظة نقود جلدية ضخمة ومنتفخة . وبعد أن قلبها بين يديه يتأملها ، تراجع الى الوراء .

انتهت أم ابراهيم من ارضاع طفلها فأسكنته جنبها وجلست ممددة ساقيها بارتياح ، مسندة نظرتها الهادئة على قدميها . ودخل ابراهيم مزهوا ، وكشر تكشيرة واسعة . لم ترفع بصرها اليه ، فألقى بالمحفظة الى حضنها قائلا :

ـ خـذي .

اجفلت ، ونظرت اليه متسائلة وهي تأخذ المحفظة بيد جامدة .

قـال :

ـ نقود كثيرة .

واذ فوجئت برزمة من الاوراق المالية الجديدة تطالعها ذهلت .. وبدت للحظة طويلة كأنها لا تجرؤ على القيام بأية حركة اخرى ... ان رهبة تجمد القلب تلك التي استولت عليها .

ضحك ابراهيم ببهجة وقال :

ـ اترين ؟ انها نقود .. نقود كثيرة .. اشتري ماء كثيرا .

افاقت .. ونظرت الى ابنها متسائلة مرة أخرى ، ولكن نظرتها

لم تقو على البقاء بعيدا عن النقود التي بين يديها . وارتفعت جذوع البنات عن الارض ، جلسن ليبحلقن فيما بين يدي الام صامتات ، دهشات ، ينتظرن ما ستفعله . . . وضغطت هذه بأناملها على الرزم . . . اصبح واضحا الآن ، في هذه اللحظة العبقرية ، أن شيئا ما ، معجزة بالتأكيد قد حدثت . وسدرت أم ابراهيم . . توقف مخها . . انعدم الزمن .

قال ابراهيم :

ـ أيضا . . يوجد في المحفظة كثير من النقود .

وبصورة آلية أطاعت الام ، وبيدين مرتعشتين أفرغت محتويات المحفظة كلها على الحصير ، وهي ترجو الا يكون في هذه الحركة موتها . لا تصدق . لا تصدق أن يكون هذا حلما . وهي أيضا لا تصدق أنها أمام حقيقة . لماذا ؟ ما الذي جرى لهذه الدنيا حتى تنقلب هكذا ، في لحظة واحدة ، مرة واحدة ، الى صفها ؟

وكانت المحفظة تحتوي على أشيــاء كثيرة . . بالاضافة الى النقود ، ثمة أوراق عادية مختلفة ، بطاقات زيارة ، بطاقة تلتصق بزاويتها اليسارية العليا صورة رجل أدركت بحدسها أنها هوية .

توقفت عيناها على الصورة مثلما يتوقف حصان منطلق أمام صخرة تسد الدرب . اصطدمت بها صدمة قاسية . . واستردت وعيها ، وهي لا تزال ترتعد . ليس حلما ما ترى ولا حقيقة . انها خدعة . حقا انها نقود . ولكنها ليست لها . انهــا تخص رجلا بلا شك . هي لا تعرف القراءة ولا تعرف صورة من هذه . . الا أن الامر واضح لا يحتاج الى معرفة من هذا النوع . . . ان هذه الاشياء

كلها ـ وخاصة هذه النقود ـ تخص هذا الرجل ، الذي يواجهها بعينيه المتعبتين وفمه المسترخي باطمئنان ، يذر الفلفل في قلبها .

وتلفتت تنظر الى وجوه بناتها ملوعة ، يقرض قلبها جرذ الخيبة القذر . وعندما رأت ابنها الاكبر ما يزال في مكانه ينظر اليهـا مبتسما سألته :

ـ من أين جئت بها يا ولد ؟

فهز كتفيه وقال ، وهو يلوي أصابعه بعضها على بعض :

ـ ما شأني .

ـ قل والا ضربتك .

ـ ما شأني .

وتهيأ للانتحاب .

اذ ذاك تذكرت أن لها زوجا وانه ينام الى جانبها فأيقظته .
ولما رأى كومة النقود بين يدي زوجه اقبل متيقظا تماما ، دهشا ، يقلبها بين يديه ويتساءل :

ـ ما هـذه ؟

ما كان لسؤاله أي معنى سوى الدهشة بالطبع . أثمة انسان يمكن ان يجهل أنها نقود ؟ قالت :

ـ اسأل ابنك .

قهقه ابراهيم ضاحكا ، وهو يضرب بكفيه على فخذيه .

ـ من اين جئت بها ؟

ـ أتعطيني فرنكا اذا أخبرتك ؟

ـ قــل .

ـ ما شأني .

ـ قل يا ولــد؟

ـ ما شأني .

وهجم الاب على ابيه ، أمسك به من عنقه ، فصرخ ابراهيم منتحبا مثل خروف :

ـ على الماء ، على الماء .

ـ اين ؟ كيف ؟ احك .

ـ كنت على الماء .. ورأيتها .

تركه وعاد الى النقود ، كلها أوراق جديدة من فئة المئة ليرة . احصاها بقلب واجف ، والتفت الى زوجته وقد تقوس حاجباه :

ـ ثلاثة آلاف ليرة يا امراة !

واحست المراة في الحال بانها ستشرع بالأحتضار . انها لاتعرف ماهية الآلاف الثلاثة من الليرات .. لكنها متأكدة من انها ثروة كبيرة .. تشتري بلدا بحالها .

وقال الرجل :

ـ عدا هذه الفراطة .. انها مئتا ليرة .

وعاود النظر الى زوجته فرأى في عينيها لهفة تنبثق تساؤلا .. ماذا ستفعل ؟

ولم يدر ما يجيبها ، غير انه في هذه اللحظة تنبه الى بطاقة الشخصية ملقية بين ركبتي المراة ، تناولها وحدق الى الصورة .. وفي الحال اضاءت عيناه ، وهتف :

ـ يا الهي ! انه الحاج !

كانت أم ابراهيم تتمنى الا يتعرف زوجها على صاحب الصورة .. أرادت أن يظل صاحب هذه الثروة مجهولا . أما الآن فان كل امل يمكن أن ينشأ من رؤية هذه الاوراق العزيزة لن يعدو أن يكون حلما ، لكنه ليس كالحلم ، انه الحلم الذي يتركك محطما .

وملأت الخيبة روحها حتى وصلت الى حلقها وغصت بها وهي تستفهم :

ـ أيّ .. حاج ؟

هتف مبتسما ، مدلا بعلمه على جهل هذه الزوجة :

ـ الحاج مصطفى عويس .

ودت أن تسأله عما ينوي فعله ، فقال لها قبل أن تحاول :

ـ سأحملها اليه حالا .

وفي الحال أحست بالدنيا كلها تنهار حولها . وللحظة خاطفة خيل لها ان القيامة حلت .

ولكنها جمعت قواها وألقت بجسمها كله الى الامام تمسك بالنقود .. فصاح زوجها وهو يحاول ابعادها عن النقود بصعوبة :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ يجب أن تظل لنا .

ـ ماذا ؟

ـ نحن .. انظر حولك ، انظر الى بناتك .

ـ انت مجنونة ؟ انها نقود الحاج .

ـ ولكنه لا يعرف أننا عثرنا عليها .

ـ صحيح ، هو لا يعرف .. ولكن الله يعرف .

ـ الله أرسلها لنا .. ليساعدنا .

فضحك منها ، متعوذا بالله منها ومن الشيطان . وأدخل جسمه في ثوبه الآخر ، الخاص بالمناسبات ، مصمتاً أذنيه عن محاولات المرأة لاقناعه بالاحتفاظ بالنقود ، وخطا الى الباب خارجا . وتشبثت بثوبه بأصابع تحولت الى مخالب :

ـ لطوف ، أقول لك اعقل .

فدفعها عنه :

ـ ابتعدي !

سقطت على عتبة الحجرة وصاحت :

ـ يا ويلي ! مجنون زوجي ! مجنون .

ثم كادت تفقد عقلها وهي تراه ماضيا على هذا النحو من التصميم ، وقفزت خلفه وأمسكت به وهو يهم بفتح باب الدار . لم يستطع التخلص منها الا بعد أن صفعها مرارا ، ولوى يديها بقسوة، والقى بها على الارض ثم بصق فوقها باحتقار ، وانطلق الى الطريق وهو يشتم اباها وامها ، في حين كان يسمع صراخها :

ـ يا ويلك من الله يوم الحساب ! والله ان لم ترجع لأذهبن انا .. اتسمع ؟ سأترك لك البيت واذهب الى بيت أهلي ...

. . .

بحماسة وبساطة معا رن جرس باب القصر . ولما فتحته له احدى الخادمات ، تلجلج وتحير ... أدرك فجاة انه ، لاول مرة في حياته ، يطرق باب قصر ، وخاصة هذا القصر الكبير الذي لم يجرؤ على مجرد الحلم بأن يطرقه ذات يوم . سألته الخادمة بتقزز واضح :

ـ ماذا تريد ؟

ـ مقابلة الحاج .

صعرت خدها متسائلة :

ـ الحاج نفسه ؟

ـ نعم .

وأعادت قياسه من جديد ، من أعلى الى اسفل وبالعكس .. كانت تنظر اليه وكأنها تمسك بجثة فأر منتنة .. استدرك هو :

ـ الامر مهم جدا .

لكنها لم تتحرك الا بعد أن تفحصته مرة أخرى بذلك التقزز ، ومطت بوزها . وطال غيابها دقيقة بكاملها :

ـ ادخل .. ولكن بعد أن تمسح هذا الـ .. حذاء القـذر بالمسحة ..

ومشت أمامه فوق سجادة عجمية ، ثلاث أو أربـع خطوات رشيقات الى باب في البهو الخارجي أدى بها الى ممر في الحديقة تظلله اشجار كثيفة الاغصان وتسوره شجيرات الورود المختلفة الالوان ، انتهى بباب زجاجي عريض .. نقرت الخادم عليه باصبعها نقرتين لطيفتين ، ثم فتحت الباب . كان لطوف الادغم يحس برهبة ثقيلة أوهنته ، وكان اضطرابه يتزايد مع كل لحظة . وحين وجد نفسه وسط هذه الحجرة الواسعة ، وجها لوجه أمام الحاج ، هذا الرجل الكهل الذي يجلس خلف مكتب كبير في الصدر ، لم يقو على قول شيء ، بعد أن أدى التحية باحترام عميق ، للحظات طوال ، ففقد السيد صبره وقال :

ـ نعم ، ماذا تريد ؟

عندئذ تخلص من حيرته بأن أخرج المحفظة من عبه ، وتقدم ، ووضعها على المكتب . تساءل الحاج عويس متعجبا ، وهو يتناول المحفظة :

ـ محفظتي ؟

ـ نعم ، ياحاج .. وجدها خادمكم على شاطيء النهر .. و ..

لم يجد ما يضيفه . انه أمام أخطر رجل في مدينته ، الرجل الذي يحترمه الجميع والحكام انفسهم ، من رئيس الجمهورية الى الوزارة والنواب ، بل انه يعطي أوامر للحكومة ويقدر على اسقاطها ان لم تلب ما يطلبه ، جميع الناس يحكون هذا . وها هي الفرصة لينظر اليه عن قرب ويكلمه . واذ رآه يتفقد محتويات المحفظة بهدوء وبنظرة قصيرة ، قال له :

ـ عدها يا حاج .. انها كما وقعت في يد خادمكم ، يشهد الله ، لم تنقص قرشا واحدا .

لكن الحاج لم يعدها .. وضعها على مكتبه وأرخى يديه ، مبسوطتين ، حواليها . وتأمل الرجل الوضيع الماثل أمامه بنظرة متشككة ، طويلة . وسأله :

ـ ماذا تشتغل ؟

ـ حجّارا ، أعزك الله .

وسُري عنه ، شعر بالفرح .. ان الحاج يتحدث اليه !

ـ طبعا انت متزوج وعندك عائلة ؟

ـ نعم يا حاج ، ثمانية ، والحمد لله .

ـ كم تكسب في اليوم ؟

ـ ما يكفي للستر ، والحمد لله ، يا حاج .

ـ للستر ؟

ـ الحمد لله ، كل واحد قسم له رزقه في هذه الدنيا .

ـ صحيح ، صحيح ، لقد نسيت هذا . ولكن الم يخطر لك .. الم تفكر ، حين وجدت هذه النقود ...

ـ خادمكم وجدها يا حاج .

ـ المهم .. ألم تفكر بأن صاحبها يربح كل يوم مثلها ؟

ـ حلال عليك يا حاج ، أرجو الله أن يزيدكم أضعافا فوق اضعاف ويطيل عمركم .

ـ الست بحاجة اليها اكثر مني ؟

ـ حاشا لله يا بك .. انا بحاجة الى رحمة الله ..

ـ معقول .. هذا ما انت بحاجة اليه حقا .. طيب ...

وبينما كان لطوف الادغم يقول :

ـ انا رجل يخاف الله يا حاج .

سحب الحاج ، من بين الاوراق المالية الصغيرة واحدة والقى بها الى الارض :

ـ خذ ، هذه الليرة ... إلا تكفي ثمنا لحبل ؟

وانحنى لطوف الادغم يتناول الليرة ، واستفسر :

ـ حبـــل ؟

ـ نعم ، حبل .. لتشنق به نفسك .

وشده . أيمزح الحاج معه ، أم تراه جادا ؟ انه لا يمزح ، المزاح لا يظهر على سماته . أهوجاد ؟ ولكن ما معنى هذا ؟ ولماذا ؟

ثم أحس بأن السيد ينتظر انصرافه ، فانسحب صامتا ، لايدري ماذا يفعل بالورقة النقدية في يده .. أيعيدها ، أم يبقيها معه وهو لا يريدها . ان تصرف الحاج ، وهذه الرهبة في قلبه هو ، جعلاه لا يعرف ما هو مستحسن عمله بالضبط .

وتلقفه الطريق مخنوقا بالغيظ والعجب . لماذا تصرف الحاج كذلك ؟ ان لم يكن مخطئا في تفسيره فان الحاج وقف في صف زوجته. كان يظن ان ... وتوقف عن السير ملتفتا الى الخلف .. ينظر الى القصر غير مصدق ما حدث . ورأى القصر كبيرا ، واسعا ، لا تلم به نظرة واحدة قريبة .. انه هائل ، يمكنه ان يتسع لمئة اسرة مثل أسرته هو . وغمغم : « عجيب ! لماذا احتقرني الحاج ؟ كنت أظن أنه ... » .

ماذا كان يظن ؟

حقا .. لماذا فعل ذلك ؟

هل كان على خطأ ؟ أكان ينبغي عليه اطاعة زوجته ؟ أزوجته اذن — وهي المرأة — أعقل منه ، هو الرجل الذي يطؤها كل ليلة ؟

وتابع سيره . « انظر حولك .. انظر الى بناتك . الله أرسلها لنا .. ليساعدنا . » .

كيف تشعر بناته الآن تجاهه ؟ أيعتبرنه أحمق أيضا ؟

ذلك المعتوه ، ابراهيم ، سبب كل مشكلة .

لم تكن خطواته متزنة كخطوات رجل يقلع الحجر ويهشمه . انها أشبه بخطوات سكير ، أو مجنون . من يدري ! أعقله الآن افضل من خطواته ؟

كانت الشمس تسحب نهايات اهدابها الحمراء الوسنى ، غير مخلفة على ذلك الافق الغربي البعيد ، وهو يلتقي مع سواد اشجار الغرب وأعلى الفرات ، سوى لون باهت ليتحول الى رماد كلما ارتفع فوق الافق . **وها هم الناس يزحمون الطريق .. انهم** يغادرون بيوتهم الى شاطىء النهر حيث يستطيعون التخلص من الاحساس بالاختناق .

. . .

كان ابراهيم قد جلس هاهنا ، في نهاية الزقاق ، منذ غادر أبوه البيت ، مسندا ظهره الى القرنة ، يمتع نفسه بالنظر الى نملاته وهي تغالب جدار القنينة الأملس المستدير ، ويرتمي بعضها فوق بعض ، فيثير بهجة ابراهيم وضحكاته المرحة .

ومرت به امرأة من الحي طويلة وعريضة المنكبين تنفتح عباءتها عن صدر مثقل بقلادة من المجيديات الذهبية . امتعضت من منظره ، قالت له مؤنبة :

ـ يا ولد ، يا ابراهيم ، استر عورتك ، هذا حرام يا ابني .

ـ ما شأني !

ومضت تبربر . ناداها صائحا :

ـ يا امرأة .

والتفتت تقول :

ـ ما بـك ؟

قال بصوت متوسل :

ـ اعندك فرنك ؟

ـ لا والله يابني .

ـ يلزمني واحد ، لأشتري هريسة ، كرمى لله .

ـ لا اله الا الله ... خذ هذا الربع .

والقت اليه بربع الليرة ، ومضت ، غير انه لم يعبأ به ، أهمله حيث سقط . انه بحاجة الى فرنك وليس لربع ليرة . ثم انه جعل من كفه منظارا وضعه على احدى عينيه ورفع راسه ينظر الـى السماء ، بقي هكذا دون ان يرى والده وهو يمر امامه الى البيت .

دخل لطوف الادغم بيته ، فرأى بناته متناثرات امام الحجرة ينتحبن بحزن وجزع . تساءل بقلق :

ـ لماذا تبكين ؟

واذا ببكائهن جميعـا يعلو بحدة ، صار عويـلا أقرب الى العواء .

صـاح :

ـ اني أسالكن .. لماذا تبكين ؟

قالت الكبرى :

ــ أمي .. ذهبت .

قال مربدا :

ــ ذهبت ذهبت .. في ستين جهنم : اخرسن اذن !

بيد انه لم يقو على الوصول الى باب الحجرة حتى راح ينهار مثل بناء عتيق تصدعت دعاماته بغتة .. فاقتعد عتبة الباب ، ساندا ظهره الى خدته ، ومسح العرق عن جبينه بكم ردائه . استشعر في عويل بناته لوعة فجرت قلبه بالحنان . قال لهن برقة وعطف ، بصوت من يهدهد طفلا لينام :

ــ كفى .. كفى يا عين أبيكن .. لن يطول ذهابها .. سترجع عاجلـــة .

ثم فكر : « اتراها جعلت الامر جدا ؟ » لم يكن متأكدا . ولكن ماذا يقول لبناته ، المسكينات ؟

عندئذ عاوده ذلك الاختناق من جديد ، ولكن أشد شراسة . ومثل نوبة بكاء جعل يتساءل ، يريـــد أن يعرف حقا : هل كان مخطئا ؟ اهو قد فعل غير الحق وما يقتضيه الضمير والخوف من الله ؟ أم كانت هي ، زوجته محقة ؟ والحاج ؟ الحاج الذي يملك عقلا كبيرا ، والذي حج الى بيت الله ، لماذا فعل ذلك ؟

انه لايعرف . ولم يكن في وضع يساعده على تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود في هـــذه الساعة وقد اختلط عليه كل شيء بكل شيء .

لا بد ، اذن ، من حكاية القصة المناس ، لكل الناس ، عساه أن يتوصل الى جواب . ولكن ... هذا الابراهيم ! هذا الاهبل ! يا الهي ! اية مصيبة هو ! واي مصدر للمصائب !

وفجأة اشتدت عزيمته ، هب مجنونا ، وبلحظة واحدة كان على راس الجادة يقبض على عنق ابراهيم بيدين قاسيتين مثل كماشة فولاذية ، وابراهيم يحشرج وهو يحاول الصراخ : « ماشأني ، ما شأني ! » وليحاول ايضا دفع أبيه عن بطنه ورقبته أفلت من يده قنينة النمل ، التي تدحرجت حتى منتصف الجادة ، حيث استقرت هناك ، وكانت النمال قد ذعرت هذا الذعر فراحت تتخبط داخل القنينة التي لم تكن تسد فوهتها سوى خرقة بالية ، لُفَّت بعناية . وفي حين ظلت النملات تناضل هذا النضال اليائس ، قفز رجل من الجيرة الى لطوف الادغم ودفعه عن ابنه دفعة قوية ، وسحب ابراهيم من تحته .. فانطلق هذا يعدو مبتعدا ، جاحظ العينين . كان قد أحس بنفسه وهو يُلقى الى حضن الموت ، واحس ببراثنه العديدة تلتف حوله وتهصره ، فرأى التماعة ، مثل البرق ، تشتعل بها عتمة المساء ، وتغمر الكون بضوء وهاج قبل أن يتفلت ، بطريقة ما من الاذرع الحديدية الرهيبة .

واخيرا ، وجد نفسه ، منهكا ، يجلس على قارعة جادة أخرى ، وسط الليل ، مع الخوف .

دمشق ١٩٦٢

زغرودة للمطر

وضعت وفاء الطفلة على الارض ، واخرجت من حقيبتها ورقة مطوية ناولتها الى الآذنة الكهلة بصمت ، ففتحتها هذه ملقية بنظرة صغيرة على الخاتم البنفسجي أسفل الحروف ، بينما كانت وفاء تحدق الى وجهها وهي تلهث لطول ما حملت شقيقتها ، ثم رفعت الآذنة عينيها عن الورقة وامرتهما بالجلوس مع الآخرين في قاعة الانتظار ، ودخلت هي قاعة العمل ..

جلست وفاء متعبة ، واجلست الطفلة على ركبتيها ، وراحت

تتأمل المنتظرين الآخرين .. ست نساء وأربعة أطفال وشيخا ، وكانوا جميعا يتأملونها وأختها بدورهم .. فسحبت عينيها عن وجوههم بشيء من الاضطراب والحياء ، ودارت بهما على مهل في المكان . كانت القاعة نظيفة لامعة لشدة نظافتها ، جدرانها مطلية بدهان زيتي فستقي اللون ، مؤزرة على ارتفاع قليل بدهان أبيض .. وبالاضافة للمدخل العادي فثمة باب زجاجي يكاد أن يأخذ مكان الجدار كله يفضي الى معمل التحليل .

منذ يومين وهي تكد لتحصل على هـذه الورقة اللعينة التي أعطتها الآذنة ، الترخيص الذي يسمح لها بفحص دم أختها مجانا في المخبر الحكومي . وها هي ذي أخيرا في المخبر .. فكم يوما ترى يتطلب الفحص ؟

ظهرت الآذنة بوجهها الجاف المخدد لتعلنها أن ترتيبها الثامن ... فشكرتها ، وبعدقليل ظهرت مرة أخرى ، واعلنت بلهجة آمـرة :

ـ ليدخل رقم واحد ، وبعد خروجه رقم اثنين ، هكـذا ، بالترتيب ، دون أن تعذبونا بالمناداة عليكم واحدا فواحدا ، مفهوم ؟

نظرت اليها وفاء باعجاب . ليت لها أسرة غير هذه ممن تسمح للبنت أن تشتغل .. اذن لحاولت أن تكون مثل هذه الموظفة .. لا شك في أنها سعيدة !

وحين اختفت الخادم ، ظل بصر وفاء عالقا بالزجاج النقي .. كانت من مكانها ، تستطيع رؤية حيز واسع من المعمل ـ بعض

الادوات ، زجاجية ومعدنية ، عجيبة الاشكال .. بعض القوارير في جزء من خزانة ، مجهر .. وفي هذا الحيز برز هيكل ابيض من العنق حتى القدمين ، أما الرأس فأشقر مثل الذهب .. امراة رائعة ، جلست خلف المجهر ، واحنت راسها ، وسكن جسمها على هذا الوضع بينما كانت ذراعاها تتحركان حركات يسيرة محدودة المجال. فحدثت نفسها :

« هذه ولا شك موظفة كبيرة _ انها تفحص ! يا الهي ، لو كنت مثلهـا ! » .

وفجأة قاطع المشهد الساحر جسم آخر .. كان فتى وسيما ، ذا شعر اشقر ايضا ، ويرتدي الرداء الابيض مثل غيره من الموظفين. تحدث الى زميلته الشقراء نحو دقيقة ، ثم ابتسم وانصرف عنها مرحا . غير ان صورته الرقيقة ظلت ماثلة هنا ، ازاء عيني وفاء . ربما داخل عينيها . وفكرت وفاء مأخوذة : يا له من مكان مريح ! كل شيء فيه نظيف ولامع مثل اللؤلؤ ! وكذلك كل من فيه أنيـق واطيف ! وهذا الفتى على الخصوص .. انها تكون سعيدة أعظم السعادة لو كانت زميلته ، مثل هذه الشقراء . ولكن ، ألا يحتمل أن يكون أجنبيا ؟

خرجت المرأة ذات الرقم الاول بطفلها الذي كان يصرخ مغرقا وجهه بالدموع والعرق ، فخاطبت وفاء اختها :

_ لا تخافي يا حبيبتي .. هو يبكي لانه جائع .

وقبلتها في منتصف رأسها ، وعادت تتأمل السيدة الشقراء ، بذلك العجب والاعجاب اللذين لم ينقطعا لحظة واحدة مذ دخلت

المخبر . فلما حان دور شقيقتها حملتها بلهفة الى داخل المعمل ، فهالها ما رأته من آلات وأدوات ، وراحت تحملق بعينين متسعتين من الدهشة فيما حولها ، كان ثمة مجهر آخر يعمل عليه رجل أسمر سمين ، والى منصة عالية ، في الوسط ، كان الشاب الوسيم جالسا دون أن يبالي بها ، مشغولا بعشرات من أنابيب زجاجية صغيرة ملأى بالدم ، ومرصوفة على حاملات معدنية ، بيد أن الآذنة جذبت الطفلة من بين يديها بخشونة ووضعتها على كرسي بلا مساند وامسكتها من الخلف ، بينما تقدمت سيدة نحيفة جدا ، بيضاء بلون القطن ، ذات شعر اسود قصير مثل شعر غلام ، فغرزت ابرة متصلة بأنبوب زجاجي في ذراعها ، وصرخت الطفلة هلعا ، فصرخت بها الآذنة مؤنبة ، وحارت وفاء فيما يجب فعله ، والتفتت الى الشاب فوجدته ينظر الى الصغيرة باشفاق .. فشعرت بسرور خفي يسري في أعماقها كذلك الذي يحصل في الحلم .

اخرجت الطفلة بدموعها وعويلها ، وجلست على المقعد نفسه ، مهدهدة اياها بين ذراعيها ، حتى نامت .

بعد ساعتين ، خرج الشاب الوسيم الى قاعة الانتظار ، وتمطى ، ثم جلس فوق مقعد خال ، وأشعل تبغة راح يدخنها بهدوء ، بدا عليه الملل .

لم يكن قد بقي في المكان غير وفاء ، والطفلة في حضنها تغط في النوم ، وامرأة مسنة . وكانت وفاء تسترق النظر الى الشاب بافتتان كلي . ارادت أن تسأله عما اذا كان ينبغي لها الانتظار أطول من ذلك ، ولكنها لم تجرؤ .

وتنبه الفتى الى ان الفتاة مهتمة به ، فنظر اليها نظرة طويلة .. امراة عادية .. غير أنه ادرك في عينيها السوداوين قلبا بكرا ، يذبحه شوق بائس ، واكتشف بعد هذا أن لها صدرا ممتلئا وناهدا بالاغراء. انها ناضجة تماما . سألها :

ـ ما بها ، الطفلة أعني ؟

ـ لا ادري ، ولكن الطبيب قال اننا يجب أن نفحص دمهـا ونعطيه النتيجة ..

شعرت بسرور عظيم وهي تتحدث اليه ، خاصة وقد ادركت أنه عربي وليس أجنبيا . حسنا ...

ـ اهي ابنتـك ؟

ـ لا ، شقيقتي .

ـ سأرى ان كنت استطيع التعجيل بالنتيجة ..

ـ سأكون ممتنة لك .

انتظرت بفرح مدة خمس دقائق ، خرج الشاب بعدها وفي يده ورقتهـا :

ـ النتيجة سلبية .. أعني ليس في دمها شيء يخشى منه .. تفضلي .

ـ سلمت يداك ، يا سيد .. انني لعاجزة عن شكرك .

ـ لا لزوم للشكر ، أنا سعيد بخدمتك .

ـ هل اذهب الآن ؟

ـ بالطبع .. هيا ، فان الطفلة بحاجة الى سريرها .

ودت او لم يشجعها على الذهاب ، لو تمسك بها ، وقال لها أن تبقى بجانبه .. لماذا لا يكون زوجها ؟ ما المانع ؟

وبعد أن سارت قليلا ، شاهدت عن كثب جمهرة من الناس حول عربة نفق حصانها في الطريق ، فهرعت تنضم الى المتفرجين . رأت صاحب العربة يكاد أن يبكي وهو يحدق الى جثة الحصان ، ثم لم يلبث أن جثا على ركبتيه يفك الاحزمة بهدوء ، غير أنها أدركت في سحنته عاصفة مكبوتة من الحزن . انها لخسارة فادحة ولاشك ! وتمنت لو انها تستطيع فعل شيء من أجله ! ليس معها من النقود سوى بضعة فرنكات هي كل ما بقي من مصاريف معاملة فحوص اختها الطبية والمخبرية والمواصلات .

وعلى حين غرة سمعت صوتا تعرفه يستفهمها :

ـ آنسة ! الم تزالي هنا ـ ما الذي حدث ؟

كان الشاب المخبري الذي ساعدها ، فدهشت وفرحت ، على انها اجابته بأسى :

ـ انظر ، وا اسفاه ! مات الحصان بينما كان يجر العربة .

ـ كلنا على هذا الطريق .. هيا بنا ..

وأمسكها من ذراعها ، فأجفلت مبعدة الذراع عنه ، وسارت الى جانبه متسائلة :

ـ هل انتهى عملك ؟

ـ لا ، اجازوني بعض الوقت لشأن لي في احدى الدوائر . أين بيتكـم ؟

ـ في الدحداح .

ـ طريقانا مختلفان للاسف ، ولكني أستطيع مرافقتك حتى موقف « باص » القصاع .

ـ لا تتعب نفسك ، أشكرك .

ـ لا تعب اطلاقا ، يسعدني أن ارافقك ، الا اذا رفضت .

وحارت فيما تقوله لهذا الشاب الغريب . انها تريده بكل كيانها . ولكنه غريب !

وودت لو تؤاتيها الجراة على أن ترجوه لمرافقتها للابد . ولكنه غريب !

ثم انها امراة وهو الرجل ، فهو الذي يجب أن . . . ماذا ؟!

ها هي ذي في العشرين من عمرها ، لم يمسها رجل غريب ، سوى الطبيب مرتين أو ثلاثا . وكانت لياليها ارقا من الحنـين واللهفة للرجل ، انتظارا ممضا في أمله لليوم الذي ترى فيه نفسها ذات زوج تحيا في ظله . لقد جنى عليها ابوها جناية قاسية . . رفض اول خاطب لانه فقير ، رفض الثاني لانه من بلد ناء ، والثالث لانه فقير ايضا . . . وبعد ذلك لم يطرق بابهم رجل من أجلها . . بعد ذلك أصبح أبوها يتمنى أي رجل ، وقد رآها مهددة بالبقاء

عانسا حتى الموت . وها هما شقيقتاها تلحقان بها لتجعلا من البيت محض مصيبة دائمة .

ـ ما اسمك يا آنسة ؟

ترددت قليلا ، ثم أجابته مستحية :

ـ وفاء .

ـ بديع .. انا اسمي منير ساعاتي .

ـ تشرفنا . مسلم ؟

ـ نعم ، مسلم . ما سبب هذا السؤال ؟

ـ شكلك مثل شكل أجنبي ..

فضحك .. تفتحت كل خلية من جسدها لتستوعب ضحكته .. كانت ضحكة مليئة بالحياة ، خشنة ومفعمة بالرجولة .

ـ هل انت مخطوبة ؟

اجابته مسرعة :

ـ لا ، ابدا ...

وأوشكت في تسرعها ان تسأله نفس السؤال ، ولكنه قال لها :

ـ وانا أيضا .. انني أبحث عن بنت الحلال .

قالت له بقلب متوسل ، خجلة من ذلك :

ـ بنات الحلال كثيرات .

ـ حقا ؟ لا ارى ذلك .

ـ فتش .

ـ انني افتش كما قلت .

وهتفت في ذات نفسها : « أو لم اعجبك أنا ؟ » .

شعرت بمهانة افسدت عليها سعادتها . على أنه لم يلبث ان قال لها :

ـ انني غريب ، أنا من الرقة ، لا أعرف أحدا .. فكيف أخطب واحدة لا أعرف عنها شيئا ؟ ولكن ما رأيك ، ما دمنا قد تعارفنا ..

خفق قلبها بفرح رائع ..

ـ هل تساعدينني في العثور على بنت الحلال ؟

وعادت تعاستها تغتصب روحها من ذلك الفرح المغرور ، المتهافت في الحقيقة :

ـ بكل سرور . أعرف كثيرات .. بيد أني أفضل اثنتين من بين كل اللواتي أعرفهن ...

تكلمت بجهد أثقل لسانها ، وهي تغص بلعابها . وكان هو يتأملها بخبث متمتعا بتموج الالوان المنعكسة من صراع عنيف داخل نفسها على وجهها . وتجلدت :

ـ نعم ، ما دمت قد وضعت ثقتك بي ، وانت شاب تستحق الخير ، فلن اكون متحيزة أو استغلالية اذا رشحتهما من اجلك .. انهما شقيقتاي .

ـ شقيقتاك !

ـ اي نعم ... جميلتان ، فاضلتان . احداهما في السابعة عشرة والثانية في الخامسة عشرة .. والحقيقة أن الصغرى أليق بك ، كأنها خلقت لك . رشيقة مثل غزال ، وذكية ، ومرحة ، وهذه هي الصفات المفضلة لديكم ، شباب هذا الزمان .. أليس كذلك ؟

ـ الى حد ما . استمري .

ـ وهما تجيدان أعمال البيت والخياطة والتطريز ، بالاضافة الى انهما تعزفان على العود ، اذا كان يسرك أن تعلم هذا أيضا ..

ـ حسن جدا ، وانت ؟

ـ وانا ايضـــا ...

كان جوابها سريعا ، وبلهجة تنم عن تأكيد كأنه قسم . وقد كان هو لا يني يلصق كتفه بكتفها ، وكانت هي تبتعد عنه كلما تنبهت الى هذا الوضع ، مرغمة . انها راغبة في الالتصاق به ، ولكنه غريب ، وهما يتحدثان عن أختيها ، كأنها ، هي ، ليست محسوبة في هذه الدنيا .. لقد كبرت .. تكاد أن تكون في مثل سنه !

توقف عن السير ، فتوقفت هي الاخرى ، وتواجها ، مثبتا عينيه في عينيها ، ساكبا فيهما سحر الحياة قويا ، فتدافعت نفسها الى عينيها في أمواج صاخبة ، وثّابة ، تريد أن تندفع الى عينيه فنفسه حيث تذوب فيها . وفاجأها صوته هادئا ، لا يحتمل تأويلا آخر :

ـ وفاء .. لقد عرفتك ـ دعيني من شقيقتيك ـ واعجبتني .. اريدك انت .. ألم تفهمي مذ غادرت عملي لألحق بك ؟

لم تصدق ، ولكنها تلقت كلماته بفرح شل عقلها ولسانها اجبروته ، وخفق قلبها خفقات قوية سريعة أوشكت أن تقضي عليه. وتداعت عيناها عن وجهه الى الارض ، بين قدميه ، تستريحان هناك وتتواريان خلف جفنيهما حياء .

سألها متجاهلا :

ـ الا أعجبك ؟

ترددت .. لكن خوفها الساحق من افلات الفرصة من يدها حرك لسانها وعينيها فرفت أهدابهما عن نظرة خاطفة الى وجهه :

ـ العفو .. أنت تعجب الاميرات .

ـ حسنا ، اتفقنا اذن . هل نلتقي هذا المساء في مكان ما ؟

ـ لا أستطيع مثل هذا الامر .

ـ لماذا ؟

ـ انت غريب .

ـ ماذا ؟

ـ نعم ، ما دمت لم تخطبني فأنت غريب عني .

ـ يجب ان أعرفك جيدا قبل ان اخطبك .

ـ الخطبة هي السبيل لذلك .

حاول اقناعها جاهدا برأيه ، دون جدوى . وتابعا السير

صامتين ، وهي سعيدة تهزج روحها بلحن غني . وبعد دقائق سمعته يقول :

ـ يجب أن أكون صريحا يا وفاء .. أنا فقير لا أملك سوى مرتبي الشهري وهو حقير جدا ، وليس لدي وفر من أجل المهر ، ولا حتى امكانية التوفير .

ـ لا تقلق ، فنحن لا نتاجر ، ونريد الستر فضلا عن هذا .. سنساعدك تماما ..

ـ وكيف ؟

ـ بعد الخطبة نعطيك غرفة من بيتنا لنومك ، وتشاركنا الطعام ، ونغسل ثيابك ونكويها .. فيتوفر لك ما تصرفه على كل ذلك ، ويكون بعد اشهر قليلة كافيا .

ـ انه عرض رائع .

وتشجعت الآن ، يجب أن تسترسل حتى لا يظل الحلم حلما ، قالت :

ـ مصلحتنا هي مصلحتك . قد لا يعيبك أن تبقى عازبا لانك رجل .. أما المراة فيجب أن تتزوج ، لان سترها في زواجها .. فاذا كان المال عائقا لك فينبغي لنا التعاون على تذليله .

وعادت تسهب في الحديث عن طريقة هذا التعاون ، بينما كان هو مطأطئا راسه ..

وصلا من شارع بغداد الى المنعطف المؤدي الى الدحداح ، فتوقفت وفاء قائلة :

ـ انني آسفة يا منير .. لا بد من افتراقنا هنا ، انت تعرف التقاليد ، فاذا رآنا أهل الحارة معا .. يجب الا يرونا معا .

كانت نظراته تنبش الارض . ووجهه غامضا ، اختفت منه تلك الحيوية ، أهو في حيرة ؟ لماذا ؟ يا الهي ! اجعل هذا الرجل من نصيبي ، وسأوقد الشموع بسخاء لكل أوليائك في المدينة .

ثم لاح لها أن فكرة الافتراق قد أحزنته هو الآخر ، فتفاقم حزنها ، وشعرت بحنان يتفجر من قلبها نحوه ، فقالت له :

ـ اسمع .. سأسير انا ، وسر أنت ورائي ، تاركا بيننا مسافة لا توحي بالشك .. وبهذا تعرف البيت .. فاذا أردت فاحضر قبيل صلاة العشاء ، حين يذهب ابي الى المسجد ، كي تتعرف الى امي .

وسارت ، خافقة القلب ، من خوف الآن ، انها في حيها ، في أزقة سكانها يعرفونها ويعرفون اسرتها . وسارت متعثرة ، تتمالك اتزان مشيتها بصعوبة بالغة لكي لا تترنح وتثير انتباه الناس الى وضعها هذا ...

وقبل ان تدخل احد المنازل في زقاق ضيق متعرج ، عفن ، التفتت تنظر اليه ، الى خطيبها ، نظرة تقول :

ـ هو ذا البيت .. نحن بانتظارك .. فالى اللقاء .

وبوجه مشرق ، مثل صباح مشمس بعد ليلة ممطرة ، أفضت وفاء لأمها بما تم من اتفاق بينها وبين الشاب الوسيم ، مبالغة في اهميته بنعتها له « مساعد طبيب » . فاحتضنتها الام تقبلها ، ثم

لم تتمالك ان تنتظر فزغردت زغرودة طويلة ، واطلت جارة تستطلع الامر . انتقل الخبر بسرعة حتى عم الجيران جميعا ، فتوافد بعض النسوة والفتيات يهنئن الام وابنتها ..

. . .

وظلت الاسرة تنتظر ، ووفاء تخفف من وطأة الوقت باعادتها تفاصيل القصة بين حين وآخر مسهبة ، واصفة شكل فتاهـا بدقة ..

غير أن صلاة العشاء تصرمت خلف وجوم وتعجب ... الكل يتساءل عن سبب تخلف مساعد الطبيب . ومن اعماق قلبها البائس قفز سؤال ليأوي في عقلها مثل سرطان خبيث : عما حدث للشاب فحال بينه وبين الحضور ، أو عما بدر منها من خطأ ، عن غير قصد ، فنفره منها !

دمشق ١٩٦٠

الفراغ

لم يكن من عمل لنا في الساعـة الاولى من كل صباح سوى ارتشاف القهوة والثرثرةالرخيصة في شؤون لا أهمية لها غير تزجية الوقت والتلهي عن الهموم .

دخلت المختبر ، عازما على كتابة رسالة قصيرة للاسرة أطمئنها بها على صحتي ، التي لم تكن حسنة في الواقع . . . كان « الحاج » الكهل ، كبير المحضرين المخبريين ، يقلم أظافره النامية وهو قابع خلف مكتبه الخاص في زاوية من قاعة التحليل الخارجية - . وبين

مكتبه ومكتب عدنان ، الكاتب الحدث الذي جلس يطالع كتابا ما ، انهمكت عائشة ، المحضّرة المخبرية المساعدة ، في اعداد القهوة على موقد كحولي ، القهوة من صنعها ذات مذاق يجعلها لذة عظيمة ، أما احمد فكان معطيا ظهره العريض الى القاعة كلها وهو يغسل الانابيب الزجاجيةالصغيرة بحركة بليدة كبقرة تجتر طعامها الابدي.
سألت عدنان :

_ هل حضر المدير ؟

_ نعم . انه في مكتبه ، داخلا .

_ هل تفقـّد المتأخرين ؟

_ اطمئن .

أخرجت من درجي الخاص الرداء الابيض ، ولبسته ، ولما اردت سؤال الحاج أن يعطيني ورقة أكتب عليها الرسالة ، عدلت عن عزمي ... لماذا أعكر مزاجي بالكذب ؟

وقفت الى نافذة تطل على حديقة مباني المخابر ، فاصلة بين مخبرنا ومخبر آخر تعمل فيه صفاء . هي أيضا ، مثلي ، محضرة مخبرية ، وان كانت بصراحة ، لا تفقه شيئا من هـذا العمل ، ولا تمارسه ، لان والدها من كبار المدراء فيالوزارة . رأيتها _ شأنها كل يوم _ تجلس الى نافذة تقابل نافذتي تماما تحوك كنزة صوفية سماوية اللون ، في انتظار قسمتها ، كما يقولون .

مددت عيني من خلال النافذتين ، ارصد كل حركة منها علّي افوز باشارة منعشة تتمرد على رزانتها ...

هتفت عائشة :

ـ وبعد ، سيد احمد ، ألن تنتهي هذه الانابيب اليوم ؟

قال أحمد ببرود :

ـ لا يهمنك ذلك ، تنتهي « اليوم » ان شاء الله .

فانفجرت صائحة بالكهل :

ـ حاج ! كلّمه انت ، هذه حال لا تطاق مع هذا الرجل !

التفت الحاج نحوها ، كمن أوذي ، محملقا فيهـا من فوق نظارته :

ـ حسبنا معارك كل يوم ، اهتمي بقهوتك . وأنت ، أحمد ، تحرك قليلا .

ولفظ الاثنان بالتبرم دون وضوح ، لم أفهم كلمة منهما . ثم نظرت عائشة الي شاكية . تدهشني أبدا هذه الصلة بين عينيها وفمها ، ببروزها الحاد ولونها البني الغامق ، وكانت شفتاها تهملان الى حد ملحوظ اخفاء ما خلفهما من أسنان سوداء مشوهة البنية والمنبت . سوى ذلك لم تكن شيئا يلفت النظر ... امرأة أقرب الى القبح ، محرومة من الحب ، وانسان لا يفهمه احد . ابتسمت لها مجاملا وعدت الى صلاتي ...

كانت خصلات شعر صفاء تمدني ، باستمرار ، بوقود يغذي الشوق الملح في قلبي . صفـاء .. القلب الذي يستقطب الحب والحنان ، الخمرة التي تكافح المرارة والدوار . لا بد أن أمي الآن ،

هناك في مطبخ بيتنا البعيد ، تعد طعام الغداء للزوج والابناء ، مفكرة بي ، وحنينها الي يلقي ظل كآبة على ما حولها لانني لن اشارك الآخرين في هذا الطعام ، ولا يرحمها وجه أبي الصارم ، ولا يترفق بها أبناؤها . رسائلي قليلة ، قليلة ، مقتضبة ، كعطاء الصحراء ، لا تشبع بل تؤكد الجوع ... منذ اسبوع كتبت رسالة لصفاء استغرقت من وقتي أربع ساعات ، بدون فائدة ، فقد مزقتها بعد أن تبينت سذاجتها ، رسائل الغرام تتطلب تلفيقات لا أملك قابلية ابتداعها ... وصفاء جارتي . الذنب ذنبها – أمي – لانها لا تشعر بحبها لي الا حينما أكون غائبا ، بعيدا عنها .. أنا في البيت أراها فقط ، لا اشعر بها أمي تماما .

سمعت عائشة تناديني :

– تفضل وخذ فنجانك ، يا قيس .

علق الحاج بخبثه الظريف (لقد وعدني بالولاية علي ، نيابة عن والدي البعيد ، في طلب يد صفاء) :

– اتركي الفتى في شؤونه ، أصابتك الحمى كم تحبين الشغب !

– ما شأنك انت ، حاج ؟ أبو العز اخي ، ونحن متفاهمان ... ومن لم يعجبه .. فليمت كمدا (راشقة احمد بنظرة جانبية سريعة لكي تنعطف عبارتها الاخيرة الى أذنه بالذات) .

قلت واعظا ، مثل أي انطوائي يعجز عن الاستجابة للموقف ، فالحديث عني اطراءً يربكني ويثقل على نفسي كالصخرة :

– نحن كلنا اخوة ، يا عائشة ، لو تفاهمنا بصدق .

وعندما تناولت فنجان القهوة من يدها ، غمزتني بعينها نحو المبنى الآخر سائلة :

ـ كيف الحال ؟

ابتسمت لها صامتا ، متراجعا الى نافذتي . هي ، باعتباري صديقها الوحيد ، كما تقول ، تظهر لي أنها تبارك هذا الحب . على اني أشك في مدى صدق زعمها ، يخيل لي أنها تغار من صفاء ، في الحقيقة ، وتحسدها .. صفاء ، هذه الغادة التي تضيء اى مكان تدخله ،وتنافس ورود الحديقة الزاهية ببهائها عندما تجتازها كل صباح الى معملها . مسكينة عائشة ! أظن أني افهمها الى حد ما .. قلبها ، حين أجرده من الحقد الطارىء في خيالي ، طيب في الاصل . قالت لنا مرة « يسلم لي ، أبا العز ، والله انه مؤدب وعاقل وقليل الكلام . » وصرحت معقبة بأنها تحب قليلي الكلام . ولما قلت لها بأن هذه صفة نادرة في النساء ـ أن يحببن قليلي الكلام ـ قالت : « في رايي ، قلة الكلام تدل على كثرة التفكير ، وهذا هو بالضبط سبب حبي لهم . انني أحب الرجل المفكر . » فهي اذن تحبني ، ولان صفاء صديقتها ـ كم تفتخر وهي تدعي هذا ـ فهي تستطيع مساعدتي كثيرا . وأوغلت ذات يوم فرسمت خطة مساعدتي بدقة. فشكرتها كما تحب ، أعني بأدب جم وبأقل ما أمكن من الكلام . بذلك اصبحنا صديقين حميمين حتى أنها دعتني يوما الى زيارة بيتها حيث سلمت على أمها وشربنا القهوة معا ، نحن الثلاثة ، ومن ذلك اليوم بدات تروي لي ، بالتدريج ، خلال شهر تقريبا ، تفاصيل مثيرة من قصة حياتها ـ وهذا هو بالضبط تعبيرها هي ـ منذ ولدت حتى اليوم السابق لوفودي على المخبر وتعارفنا ، في الحقيقة لم

ـق بصداقتها مثلما تعودت تجاه اغلب الصداقات التي عرضت لي.

احمد ذهل تماما من هذه الصداقة ، وكان موقفه من دلائلها يشف عن غباء ، ولست أظن الا انه قد أعاد النظر في حكمه علي ، يبدو لي هذا في اثارة تحفظ ظهرت في تعامله معي . على أني لا اجزم بأنه أصدر حكما جديدا ، على الاقل لانه لا يزال في حالة الذهول هذه . كان يفترض أن أساعده في التغلب عليها . حسنا ، ولكنه لم يفهم أن هذه المساعدة لا تتم الا بهذا الشكل : أن أشمر عن ساعدي واضع يدي في خاصرتي واقفا بجانبه في تحفز .. حتى اذا ما نبحت عليه ـ كعادتها اليومية ـ جعلنا لحمها يختلط بعظمها . ليست هذه شريعتي المثلى ، لكنها بالنسبة له تراث أصيل ، والسلف في رأيه خير من الخلف ، بل انه لا يؤمن حتى بالمحاكم . أيمكن حقا ظلم انسان مثل عائشة ، بعد أن اكتشفتها وفهمت عذابها ؟ أعتقد ان الحب هو ما تحتاج اليه . لقد كانت الابنة البكر لعامل بستاني في دوما ، قضت فترة قصيرة من سنيها الباكرة في مدرسة ابتدائية وأخرى مثلها تقريبا بين قذارات الأزقة والبستان .. ثم فرض عليها بأن تكون امرأة قبل أن تقلع عن عادة البكاء من أجل فرنك تشتري به قضامة حلوة . كان هناك رجل ، من أصدقاء أبيها ، متزوج وله أربع بنات ، يطمع في امرأة تنجب له غلاما . كان يتردد على بيتهم ـ وهو كوخ طيني في جانب من البستان ـ وكانت كثيرا ما تجلس بجانبه متكئة على فخذه ، مستسلمة لعبث يده في شعرها البربري . فجأة ـ هكذا قالت ـ زفت الى بيته زوجا ثانية له !

لم يكن زواجا موفقا . فقد ولدت لزوجها بنتا ، فأذلها ، واتيح لحماتها وضرتها معا أن يتسلطا عليها فاستغلا صغر سنها وضعفها

استغلالا فاحشا .. وتصادف موت طفلتها مع رغبة الزوج في تجربة ثالثة من اجل الحصول على غلام ، فكان سهلا عليه تطليقها والابقاء على الاولى أم الاربع بنات . ولأمر ما ، لا يمكن تفسيره ، وهو على كل حال ليس تلفيقا مسرحيا ، مات والدها قبل أن تكمل عدتها
ـ تقول المسكينة : حكمة الله . لا أدري ، المهم انها وجدت نفسها هكذا ، ملقاة بدون أي سلاح أمام عدو لا يرحم .. مطلقة لا تكاد تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، مع أمها واخويها الصغيرين ، لا تملك جمالا يساعدها ولا مؤهلا للعمل من علم أو حرفة . كانت في بداية الامر تقاسم امها عملها في غسل ثياب الناس ، في العاصمة . ثم اجرت نفسها لسيدة ذات مقام اجتماعي وعز اقتصادي لتربية طفلها . هذه الحياة الجديدة في منزل مرفه ، أتاحت لها فرصة لتغيير مجرى حياتها ... عرفت المجلات لاول مرة ، فاغرتها الصور الملونة بتقليب صفحاتها بدهشة ، ودفعها الفضول الى محاولة معرفة شروح هذه الصور ، حتى قرات ذات مرة قصة شقاء يشبه شقاءها
ـ جعلتها تبكي وتعيد قراءتها مرة بعد مرة وهي تبكي . فأدمنت على قراءة القصص ومنها تطورت قراءتها فصارت تشمل المجلة كلها .. مما اتاح لها التوظف في سلك التمريض . وعقب هذا مرضت امها فعجزت . منذئذ ، عائشة تعول اسرة ليس لها في وجودها أي خيار ، كوجودها هي على كل حال ... مستمرة : مطلقة شابة ، ليس في عالمها سوى متاعب الاعاشة والعيش ، وجحيم وقوده قلب بائس !

ـ سيد عدنان ، بردت قهوتك .

صاحت عائشة بأسف . فقال عدنان وهو يدفع الكتاب جانبا :

ـ يلعن دين الكيمياء !

سألته :

ـ لماذا لا تلتمس مساعدة المدير ؟

ـ تهرب بقوله : لماذا تريد شهادة البكالوريا ؟ صارت مثل عدمهـا .

قالت له :

ـ دعني أساعدك أنا .

وضحكنا . غمغم أحمد ببرود :

ـ ضمانة مثلى للرسوب .

صرخت ، رامقة اياه بنظرة غاضبة جعلت عينيها أكثر جحوظا :

ـ اخرس انت ! لست في بال أحد ، أتفهم ؟ اهتم بعملك فقط .

قال بذلك البرود نفسه ، دون أن يرفع رأسه عن المغسلة :

ـ يخرس واحد مثلك .

ـ احمد ، احذر ، والا ندمت .

صاح الحاج مغضبا :

ـ اخرسا أنتما الاثنين ! فظاعة ، ما أقل حياءكما !

تذمرت عائشة في دلع انثوي غريزي :

ـ حاج ، لم أنت هكذا ؟ ألم تر وقاحته ؟

قال الحاج مستلينا :

ـ يا بنتي ، والله صدعتم رأسي ، هذا لا يجوز ، عيب . أثمة غيركما مزعج هنا ؟

وتدخلت أنا :

ـ هدىء أعصابك ، حاج . انت تعلم انهما لا يقصدان هذا . انها وسيلة للتفريج عن الهم لا أكثر . فهما أخوان رغم كل شيء .

صرخت هي بشراسة :

ـ خسىء مثله أن يكون أخي !

غمغم أحمد ببروده :

ـ خسىء أمثالك .

فصرخ الحاج مرة أخرى :

ـ كفى يا نوّر ! أحمد ، أغرب عن وجهي حالا .. هيا !

احتج احمد بكلمات بذيئة ضد هذه الحياة . وبدأت عائشة تنتحب ، كعادتها كلما استثيرت . لم يكن سوى احمد من تستطيع تهدئة انفعالها بتحديه والصراخ في وجهه والاستعلاء عليه .. الدموع تثيرني ، تثير بي شعورا طاغيا بالضعف . وكنت لا أني صامتا ، أتأمل في أحمد الذي أحسبه قد كان تمثالا من حجر دبت فيه الحياة

بطريقة ما ... ان بروده وثباته في جميع الظروف على نفس الملامح والنبرة والهدوء لشيئان أحسده عليهما في مدينة محمومة كهذه ، تمزق الاعصاب ان لم تكن مثل اعصابه . أمعنت النظر في وجهه الوسيم المريح للنظر ، وجسمه الغليظ كجسم بغل سمين ، اظن بدون قوّته . عيناه عذبتان في سوادهما شيء لذيذ ، يجتذب النفس عمقه . لقد اختار عائشة لتكون زوجته ، وكان ممكنا أن تكون الآن زوجته منذ اشهر عديدة . على أن الحاج أفسد كل شيء . الحاج يملك بيتا ومرتبا كبيرا ومركزا أرفع ، فهو ينوب عن المدير في الادارة عندما يغيب هذا . لذا تراجعت عائشة عن موافقتها على رغبة أحمد حالما أبدى لها كبير المحضرين المخبريين رغبته في ضمها الى حرمه . ان طلبه هذا رفع من منزلتها وقيمتها في عين نفسها فنظرت الى أحمد نظرة ملأى بالازدراء ، اعتبرته تجاوز حدوده الحقيرة اذ أقدم على مجرد التفكير بها زوجة ! تحول الود بينهما ، وكان عميقا ، الى عداء مر . ولم ينفع نكوص الحاج عن عزمه ذاك ، تحت ضغط زوجته وبناته السبع ، في عودة السلام ، كما ان الحاج من جهته لم يحاول اصلاح ما أفسده بين مرؤوسيه الفقيرين ، الطامعين في حياة هانئة بدون جحيم دموي ، رغم علمه بما كان .

جفت دموع عائشة ... هكذا تنتهي أزمتها كل يوم . وعادت تضاحكنا وتوزع عطفها على الجميع ـ الا أحمد ـ بلطف بالغ . أما أحمد فقد انتهى به الامر الى أن يشعل سيكارة ويستند بظهره الى الجدار في وقفة صاغرة وينهل الدخان في تنفس بطيء ، ناظرا

الى عائشة نظرة استطعت تلمس الاسى فيها رغم طبيعته البليدة ، ثم خرج الى الحديقة .

واجتاز بصري مجال الحديقة ، من خلال اغصان البرتقال والسرو ، الى النافذة المقابلة ، يتلمس ومضة نور هناك . كانت صفاء تزورنا ولا تبخل — حين لم أبح لها الا بالعين . منذ أن تحرك لساني وتخلص من عيّه جهلت طريقنا .

دخل شرطي .. رحبت به عائشة بما تملك من حرارة . فض ورقة عن قارورة ملأى بالبول وسلمها للسيدة ، شاعرا بالزهو تجاه حفاوتها به . واذ رجته أن يستريح على كرسي قدمته له بنفسها ، ريثما تنهي التحليل ، جلس كمن في ظهره تصلب ، لفرط ما احس بنفسه ، وقد اكتسبت أذناه السمراوان لون النبيذ الاحمر ، ورمقني بنظرة سريعة ، بعد أن عدل من وضع هندامه .

عدت بعيني الى النافذة ... انحسرت الغيوم ، وبدت الشمس ، خلف نافذتها العزيزة ، سخية النور . ليتني أعرف كيف السبيل الى دفئها .

بيد أن امراة بدينة يشع وجهها بنور العافية والثروة ، ترتدي الزي القديم الاسود وتطوق معصميها عدة أساور ذهبية ، انتزعتني من محرابي . كان زندها مكتسيا بالشحم بحيث ضاعت أوردتها خلف طبقته السميكة فتعذر علي استخراج الدم اللازم للفحص . تصبب العرق من وجهي ، قبل أن تنجدني عائشة ، فتمكنا ، بعد لأي ، من استنزاف بضع نقاط .

وبعد دقائق كان مقعدا الانتظار ، في البهو ، مزدحمين بالنساء والاطفال والرجال ...

ودعت عائشة الشرطي بلطف دافق . وحين خرج ، محت الابتسامة اللطيفة في الحال ، وصاحت :

ـ أين ولي احمد ؟ أما رأى كم زحمنا بالعمل ؟ ما أقل مروءته !

دمشق ١٩٥٩

الشيخ مبارك

حتى الان لم أعرف أي سبب يدفعني أحيانا للتحـدث الى نفسي . صدقوني . أنا عندي أصدقاء كثيرون ، طيبو ن مثلكم ، فضلا عن رفاقي الآخرين من عمال الميناء ، الذين أعمل معهم طيلة النهار . ومع أننا نتحدث بصراحة ، يبوح بعضنا للبعض الآخر بأسراره بالبساطة التي نعبر فيها عن متاعبنا ومسراتنـا اليومية ، أعني دون حرج ... مع ذلك ، أكتشف نفسي في كثير من الاحيان ، وأنا في هذا الوضع الغامض ، كما هو حالي الآن مثلا ،

اتحدث اليكم دون ان اراكم ، دون أن تكونوا حقيقيين اذا سمحتم لي بهذا التعبير ، كذلك اجدني وانا غارق في مثل هذا الحديث مع نفسي . وانني لأتساءل : لماذا ؟ هل تجدون تفسيرا معقولا ؟

أنتم ترون اذن ... ان هذه الحالة تسبب لي كدرا . ليس بسببها بالضبط . انما هي في الحقيقة سخرية أصحابي . الأسوأ من هذا انني صرت عرضة للهزء وسلاطة اللسان ـ خمنوا ممن ؟

من زوجتي !

اي والله من زوجتي ! فتصوروا اذن !

اليوم مثلا ... افقت من نومي عند الفجر لأذهب الى الميناء مبكرا كعادتي ، حريصا على الا أوقظها . وبعد أن غسلت وجهي برشقتين من الماء ، طفحت في نفسي شهوة ليست من عادتي ... أن اشرب فنجانا من القهوة ، شأن بعض عباد الله ، وأنا جالس على الفراش . ولا ادري عندئذ ما حدث . أعني .. يبدو أنني دون شعور ، دخلت في الحالة التي أحدثكم عنها ، حتى لكزتني المرأة في ظهري ، وهي تنبهني :

ـ ارجع الى عقلك يا رجل .

وطبعا تنبهت .. في الواقع ارتبكت ، فقد فاجأتني ، وكنت اخشى هذا منذ أن شرعت تسخر مني بتلك الطريقة الخالية من الحياء . قلت لها من غير أن أعرف ما أقول :

ـ هل استيقظت ؟

وكأنني لعبت بكبسولة القنبلة ، فنبرت بصوتها العريض الوقح، الذي زاده النعاس بلادة :

ــ نعم ؟ أأظل نائمة وانت قاعد عند رأسي تقرقر مثل قط عجوز ؟

ثم اعتدلت من رقدتها جالسة ، وقد بدا لي في الحال ان سحنتها قد حملت نذير صباح لن يمر على خير :

ــ اسمع يا رجل . انت لا بد .. مؤاخ .. أنت تعاشر ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ جنيا .

قلت متجلدا لأخزي الشيطان :

ــ بالله عليك ، لا تكوني سخيفة . أنت تعرفين انني لا أعاشر غيرك .

ــ اذن ، هو الشيطان دخلك .. استوطن نفسك .

ــ يا امرأة لا تعكري صباحنا ، الا يكفي أنك لا تفهمين ؟

ــ أفهم أو لا أفهم .. المهم انني افهم شيئا واحدا .. هــو حاجتك الى الفحص .

ــ لا حول ولا قــوة الا بالله ! طيب ، ارتاحي انت ، ارجعي النــوم .

ــ اقول لنفسي .. لماذا لا تذهب الى الشيخ مبارك وتعرض نفسك عليه ؟

ــ يا امرأة صلي على النبي في هذا الصباح ، ما هذا الكلام ؟

وبالطبع .. امراة مثل امراتي هـذه ، لا تظنوا أنها تسكت بسهولة عندما تجد مادة للثرثرة والصياح ، وهي التي تستطيع ان تجعل من اي شيء مادة صالحة للحديث ساعات وساعات . ماذا اقول لكم ؟ غسيل الجيران مثلا .. ما الذي يعنيه غسيل الجيران ؟ مع هذا فان غسيل الجيران عندها يمكنه أن يتحول الى جريدة بكاملها !

المهم أنني هددتها بقبضة يدي حتى سكتت ، ورجعت الى رقدتها وأغمضت عينيها . غير أنني ، بعد نصف دقيقة ، سمعتها تقول بهدوء ، ولكنه الهدوء الألعن من تكسير الرأس :

ـ اي والله يا ابن العم ! يليق بك أن تجن في آخرة الزمن !

استعذت بالله منها ومن فألها . ولكني ـ دون ارادة ـ دافعت ظنهـا :

ـ اسمعي يا امرأة .. ألا يحق للانسان ، أحيانا ، أن ...

ماذا أقول لها ؟

وهكذا ، زدت الطين بلة كما يقولون ... فتحت شهيتها :

ـ ان ماذا ؟ هه ؟ ظريفة منك يا رجلي ! ظريفة منك يا عمود بيتي وابا عيالي ! فما هي الا ايام أخرى حتى أراك داشرا في الطرقات، والاولاد من حواليك يصفقون ويصيحون : مجنون مجنون !

ـ مجنون مجنون ، كفى اذن !

ـ أنت ستنتهي الى هذا المصير حتما .. تتشرد في الطرقات والصبية يلاحقونك ...

وتحركت يداي تريدان الاندفاع الى رقبتها ، وانا أصرخ :

ـ قلت لك كفى !

ورايت الذعر في عينيها ، وهي تنكمش في رقدتها مثل كلبة مريضة ، وفي الحـال تمالكت نفسي وكتفت يدي الهائجتين ، وقلت لها :

ـ اسمعي .. لو أنصت الى كلامي .. اعني لو فهمت ما أقوله عندما اكلم نفسي ، لفهمت اذن . وبـدلا من الردح بهذا اللسان الطويل ، كان حريا بك أن ... تساعديني .

ـ لماذا ، اسم الله حولك ؟ ما الذي أصابك ؟ أنت قوي مثل بغل ، وانت تعمل وتكسب بحمد الله ، وعندك بيت وعيال .

ـ لا لا ، انت لم تدركي العلة . أعني ...

ـ تعني انك مريض .. أكنت أقول لك غير هذا ؟.. أنت مريض حق، ويلزمك علاج .

شعرت بأنني زنقت نفسي حينما طلبت النجاة . فقلت لهـا متخلصا :

ـ طيب طيب ، سأحاول استشارة طبيب النقابة .

ـ لم اقل انه الطبيب .. علتك يلزمها الشيخ مبارك . هذا ما سبق أن قلته لك بصراحة .

هذه هي حالي . وما هذا الذي رايتموه الا مثل واحد ممـا اعانيه منها كل يوم . لا تظنوا ان هذه الحالة في ذاتها هي مصدر

تعاستي .. ابدا .. فهي حالة طبيعية ، فيما اظن ، بل أؤكد لكم ، لا تجعلوا من شكوك امرأتي الجاهلة سببا لاثارة الشك في نفوسكم انتم أيضا . حقا .. انا اعترف بأنني احس بهذه التعاسة التي لاحظتم دلالتها في حديثي ، أنتم محقون من هذه الناحية . انما أؤكد لكم ان تعاستي هذه هي مصدر علتي ، اعني سبب هذه الحالة . اقول لكم اذن ما هو سبب هذه التعاسة ؟ أتنتظرون مني هـذا الاعتراف حقا ؟ بصراحة ، ودون أن تضحكوا مني أو يصيبني مكروه ـ لاسمح الله ـ وأنا رب عائلـة ؟ ولماذا العجب ؟ لقد حاولت مصارحة امرأتي ، في هذا الصباح نفسه ، فماذا لقيت منها ، وهي زوجتي وأم عيالي ؟

لقد تراجعت الى الوراء باستنكار شديد ، وضربت فخذيهـا بكفيها نادبة :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ! الرجل فقد عقله فعلا !

ـ والله يا امرأة ، والله أقول لك .. ان هذا الذي يحدث لي كله .. سببه أني وجدت عقلي .. انني صرت رجلا يدرك الامور على حقيقتها . لم أعد رجلا جاهلا لا هم له الا حمل الاثقال من أجل لقمة العيش ولو كانت مرة ، مثل أي حمار مسكين في هذا الكـون .

ـ اهذا كلام عقلاء يا ناس ؟

ـ نعم ، انت محقة في أن تعجبي . فهذه هي الدنيا . انا نفسي ارى الامور من حولنا غير طبيعية .

واقبلت علي حدوبة ، وكلمتني بلطف بالغ ، كما لو كنت طفلها الصغير يرتعش من الحمى :

ـ وكيف ، يا ابن عمي ، كيف تراها ؟ ها ؟

ـ اعني .. ليست واقفة كما ينبغي .. مقلوبة .. نعم ، انها مقلوبة .

ـ تعني .. واقفة هكذا ، على رؤوسها بدلا عن ارجلها ؟

ـ هكذا تقريبا .

واذا بها تضرب كفا بكف ، وتنوح :

ـ آه ، هذا هو الامر اذن ! صدق ظني !

وبينما كنت أحملق فيها يائسا ، واعتزم الانصراف عنها الى عملي ، التفتت الي حدوبة مرة اخرى ، وكلمتني كما لو كنت طفلها ذاك فعلا :

ـ قم ، قم آخذك الى الشيخ مبارك .

وكدت أنفجر من جديد :

ـ أرجعنا الى شيخك المبارك هذا ؟

ـ بالطبع ، ولم لا يا ابن عمي ؟

ـ اسمعي ، انا لا احب من المراة أن تمزح مع زوجها بهـذه الطريقـة .

ـ انا لا امزح ..

وأطلقتها في وجهي بوقاحة :

ـ .. انا لا أمزح ما دمت لا أرى الاشياء واقفة على رؤوسها .

سكت مرغما . فهل توقفت هي ؟ بل تشجعت وتمادت :

ـ هيا ، انه شيخ مبارك حقا ، اسم على مسمى .. فهو صاحب كرامات ، وان أعتى العفاريت والشياطين لا يجرؤ على الصمود امامه . سوف تجد الراحة على يديه . أنت تعرفه ولا شك ، فهو مشهور ، يعرفه الناس جميعا .

ما رأيكم ؟ هل من فائدة اذن ؟ بالنسبة لامرأتي ما كانت ثمة طريقة اخرى سوى أن أترك البيت وأذهب الى عملي ، بعيدا عنها وعن سيرة شيخها وكراماته .

. . .

في الميناء لم يكن وقتنا ايخلو من فترات بطالة ، نجلس أثناءها على هذا الرصيف او ذاك ، نرقب ما تحمله أمواج البحر من وعود ، ندخن التبغ ، ونحن نثرثر تلك الثرثرة التي أصبحت في نظري خليقة بالخجل اغلب الاحيان ، نحوم حول الاشياء والامور دون أن نبلغها . المهم .. في احدى هذه الاستراحات ، حدث شيء لفت نظري باهتمام زائد . دعوني ألتقط انفاسي أولا ..

. . .

نعم .. فقد رأيت الخواجة الياس .. أنتم قد لا تكونون على معرفة بالخواجه الياس ؟ انه مدير احدى شركات الملاحة البحرية . أنا أعرفه جيدا ، ليس من خلال مهنتي وحدها ، بل من خلال

خدمات أخرى أيضا ، خاصة بشركته ، أربح منها بعض الليرات الاضافية .. ولم يكن يلوح لي أن في عقله شيئا غير طبيعي .. انه رجل اعمال ناجح ـ كما يقولون ـ وشركته تسير بصورة حسنة بفضل ادارته ، بل انهـا تثير السخط لدى الشركات الاخرى ـ تعرفون ما يفعله الحسد في نفوس الناس ، أليس كذلك ؟ حاصله .. ان الخواجه له وزنه بين الخواجات ، وهم ينادونه الياس بك . فما هو قولكم في انني رأيته يهبط من سيارته ، ويتقدم الى ناحية من الرصيف الآخر ، ويقف في وضع من ينتظر شيئا ما ، ربما ، وهو يتحدث الى نفسه ؟

بعيني هاتين ، اللتين كانتا مفتحتين تماما ، رأيت الخواجـه الياس عندئذ وهو يتحدث الى نفسه . أنا لا أدعي بأنني سمعت صوته . غير أن حركة شفتيه المستمرة كانت واضحة ، وفضلا عنها كانت يداه تتحركان بعصبية ، حركة اليدين المألوفة عندما يتحدث المرء بحنق مع آخر يواجهه ، رغم أن أحدا آخر لم يكن هناك ، قريبا منه على الاقل . كل هذا وذاك أكد لي أن الخواجه ، والخواجه الياس بالذات ، يكلم نفسه .

ما كنت لأصدق لو أن أحد زملائي هؤلاء قد أخبرني أمرا كهذا. انا أعرف انهم يبالغون احيانا في الخلط بين الحقيقة والخيال ، بين ما يحدث فعلا وما يتمنى احدهم أن يحدث . الا أن المسألة واضحة هنا .. أرى بعيني ما يحدث ، وأتأكد منه مثلما يتأكد احدكم من أي شيء يلمسه لمس اليد .. اعني أن الخواجه الياس يتحدث الـى نفسه فعلا .

ولكي أمعن في التأكد ، وربما لآمن على نفسي من سخرية الرفاق ، وأنا لست نجيا منها كما سبق أن أخبرتكم ، نبهتهم الى ما رأيت .

فما هو ظنكم ؟

كل ما فعلوه هو انهم ضحكوا ضحكة صغيرة ، بل اقرب الى ابتسامة ثم رجعوا الى ما كانوا فيه من ثرثرة أعني لم يروا تلك الظاهرة الغريبة ، الصالحة للسخرية كما فعلوا معي .

كأنكم صببتم على راسي ماء باردا . لماذا سخروا مني أنا اذن ؟

وما يكون رأي تلك المرأة ، أعني زوجتي ؟ فلو كانت هنا الآن ، ورات الخواجه الياس في هذا الوضع ، أكانت تهرع اليه ، وتجره من يده — مثل فعلها معي — مهيبة به لان يبادر ويذهب الى الشيخ مبارك ؟!

دمشق ١٩٦٧

ذات أمسية

كانت الاحلام قد انتهت منذ زمن بعيد .. عندما أتيح لـه ــ بالمصادفة ــ أن يتزوج ، وأن يودع العام الثلاثين من أعوام عمره التي تعد اليوم خمسة وثلاثين . قلنا ، تحفظا ، ان ذلك حدث بالمصادفة ... وبقي ان نضيف ــ بلا مرارة ــ حقيقة أخرى ، قد لا تكون من اكتشافنا ، وهي أن كل شيء يبدأ عندما ينتهي كل شيء ... فالحياة لا تخضع للمنطق الرياضي ــ نعني حيـاة الانسان .

لهذا .. لانه زوج ، واب أيضا ، ولانه تجاوز سن الرشد بكثير ، ولان حذاء زوجته المهترىء ـ مثلا ـ اصبح عنده أهم من رحلة الى سويسرا نفسها .. فانه بعد ان افاق من غفوة القيلولة ، جلس على كرسي منخفض ، أكثر الكراسي راحة في البيت الصغير ، يرتشف فنجان القهوة ، ويدخن آخر تبغة في علبته ، ويستمع الى الاغاني من المذياع ، من غير ان يخطر له أن يحلم ولو قليلا .. بالرغم من حاجته الى الحلم . لقد كان يقول دائما ، كلما فاجأ نفسه غارقة في الحلم ، عقب زواجه : « ان هذا لا يقود الا الى مرارة أشد » .

لم يكن يريد البقاء مثل غدير بليد ، هكذا ، في البيت .. ولم يكن البيت ، على كل حال ، ليغريه بهذا البقاء ... فتلك هي زوجه تصل المكواة بالتيار الكهربائي ، وتبخ بعض الملابس بالماء لكيها ، انها مشغولة .. واما طفلاه فشقيان لا يحتملهما من غير أن يضربهما ـ ولهذا عاقبته السيئة ، اذ ان الزوجة لا ترضى عن ذلك ولا تتسامح اذا رآته . وكان الجوخانقا ، في امسية هذا الاحد من اواخر أيام آب ...

مد ساقيه امامه ووضع قدما فوق قدم . وسأل :

ـ ماذا تفعلين ؟

أجابت زوجه بلا اكتراث :

ـ كما ترى .

ـ اتريدين كي الثياب ؟

ـ اظن ذلك .

فقال :

ـ شيء جميل أن يكون الانسان ما يفعله دائما .

غمغمت الزوجة :

ـ انتم الرجال ماهرون بالكلام ، فقط .

خيل اليه انها مناسبة تستدعي الضحك ، فضحك . قالت :

ـ اضحك ما طاب لك ، ولكن هذا صحيح ، أنتم كسالى .

فاسترسل في الضحك ، وقال :

ـ ماذا تريدينني أن أفعله بعد انتهاء دوام الوظيفة ؟

ـ أنت تعرف وتتجاهل .

ـ مـاذا ؟

ـ قطعة القماش .. يجب أن تأخذهـا الى الخياط . ماذا تنتظر ؟ ثم ان شعرك قد طال بصورة مزرية .

ـ وانت أيضا تعرفين وتتجاهلين أن جيبي ...

ولم يتابع . قالت :

ـ لم أتجاهل :

وهرعت الى حجرة النوم ، ثم رجعت حاملة حقيبتها الجلدية الصغيرة وهي تفتحها ، وأخرجت منها ورقة نقدية :

ـ اليك ، هذه خمس ليرات استقرضتها من أختي .

قلّب الورقة بين يديه ، وقال بحنان :

ـ ما اجمل أن يكون لدى الانسان بعض النقود !

ـ ليتك تدرك هذا حقا .

ـ انني اعمل طاقتي كما تعلمين جيدا .

ثم تابع غناءه :

ـ ان خواء الجيب مثل خواء المعدة ، يقلق الانسان ويحشو راسه ببعض الافكار السيئة . من لا يملك ...

وقاطعته حانقة :

ـ بحق الاله أيها الرجل ، بدلا عن اضاعة الوقت هكذا ، اذهب قبل أن يغلق الحلاقون .

ـ حسنا ، يا سيدتي .. انني ذاهب .

وتناول قطعة الجوخ ، ملفوفة بقرطاس أصفر ، وغادر البيت .

كانت الشوارع مزدحمة بالناس . وخطط مهمته : سأشتري اولا علبة تبغ ، ثم اذهب الى احد الخياطين فاتفق معه على خياطة بذة وفق آخر طراز شرط تقسيط الاجرة على شهرين ، وبعد ذلك اذهب الى حلاقي . ولفتت نظره سيدة تقف على مدخل بناية في الطرف الآخر من الساحة ، وهي تنادي بأعلى صوتها : « طارق .. طارق » ، ولاحظ انها تتجه ببصرها نحوه ، فأدرك أنها تقصد الصبي الذي يمشي بجانبه . ولكي يتأكد سأله :

ـ أانت طارق ؟

فقال الصبي بلهجة عدائية ، فظة :

ـ اي نعم ، ماذا تريد ؟

كان صبيا وسيما ، في الثامنة او نحو ذلك من عمره ، وكان يحمل وردة حمراء يشمها باستمرار قال له :

ـ امك تناديك .

فمد الصبي وجهه بحركة هجومية ، وقال بتلك اللهجة نفسها :

ـ طيب انها تناديني ، وما شأنك انت ؟

قال الرجل بلطف مفتعل ، وقد استولت عليه الدهشة :

ـ حسبتك لم تسمع ، فأردت ..

ـ اذن ، اخرس !

ـ نعسم ؟

ـ اخرس ، اتسمح باغلاق فمك ؟

وكان قد توقف ، مشلولا بالدهشة ، يحملق في الصبي الذي مضى في سيره قدما ، حتى غيّبه منعطف قريب .. عندئذ تحرك الرجل ، وهو يطوطح رأسه يمنة ويسرة ، وتأوه : « يا الهي ! كيف ربّي هذا الصبي ؟ » .

وفكر بطفليه ، متلفتا حوله ، وتابع سيره ببطء وهدوء حتى طالعته واجهة رصفت فيها علب تبغ . طلب واحدةمن البائع ودفع اليه بالورقة النقدية . كان مثقل النفس مرتبكا ، وقال يحدث

نفسه : « اكان ينبغي صفع الصبي على فمه جزاء وقاحته ؟ » .
واعاد اليه البائع بقية الليرات الخمس ، فدسها في جيبه وأشعل لفافة ، وقال لنفسه : « اخشى الا اجد خياطا يجمع بين صفتي المهارة ورخص الاجرة » .

ورأى أن يعتمد في هذا على صديق له ، مغرم بالثياب الانيقة ، يدير محلا تجاريا صغيرا ، ولا شك في أنه يستطيع الاعتماد عليه . فمضى اليه مسارعا خطواته . لقد مضت مدة طويلة لم يتعامل خلالها مع أي خياط .. البذة الوحيدة التي يملكها هي التياشتراها بمناسبة زواجه ، يرتديها في الشتاء ويستعمل بنطلونها في الصيف . بيد أن بنطلونها المسكين قد اهترأ من الخلف ، في المكان الذي يحتك بجلد الكرسي الذي يجلس عليه في مكتبه ، لمدة ست ساعات كل يوم . وقال الرفاء : « لا فائدة اذا رفوناه اليوم تفتق في الغد .. انظر .. ان خلفيته صارت تشف مثل المنخل » واذ ذاك اضطر الى شراء بنطلون جديد ، من مستوى الخيش . ولكن الصيف يوشك على الانتهاء ، من جهة ، كما ان ابن عمه ، من جهة أخرى قد خطب فتاة من عائلة مرموقة ، وبما أنه هو أكبر أخوته فهذا يقتضي أن ينوب عن عائلته في أداء واجباتها في عرس أحد أفرادها وبصورة محترمة ... كان لا بد من بذة جديدة اذن ... وهكذا فقد سعى الى الحصول على قطعة الجوخ هذه ، وذلك بوساطة أخي زوجته الذي يعمل لحساب متجر اجواخ : « القطعة كلها بخمسين ليرة .. فتصور ! » وتصور فورا : نضيف اليها خمسين لاجرة الخياطة ، فنكون قد ارتدينا بذة جديدة بمئة ليرة فقط . كان هذا شيئا مغريا فعلا ، لا سيما وأن أخا الزوجة الطيب قدم له القطعة مرجئا المطالبة

بثمنها : « ادفعه فيما بعد .. بعد شهر ، شهرين ، عندما تكون في حال تسمح لك بالدفع من غير انزعاج » .

كان محل صديقه قرب بوابة الصالحية ، وكان من الانشغال بحيث انه اكتفى بالترحيب به ثم انصرف الى عمله . فقال له :

ـ لن اعطلك ، ولكني مضطر لأسألك أن تدلني على خياط جيد .. ورخيص .

ـ انتظر ريثما أنتهي فنذهب معا .

ـ اشكرك .. دلني فقط ، وسأذهب بنفسي ، أنا مستعجل ، اريد ان اقص شعري ، والوقت ضيق ، غدا عطلة الحلاقين الاسبوعية كما تعلم .

ـ آه ، حقاً .. حسنا .. اذن اسمع .. هناك خياط في حي الشيخ ...

كان عليه أن يأخذ الباص من موقف البوابة .

. . .

ربع ساعة في انتظار باص ـ والوقت على هذا الضيق ـ شيء ينافي المنطق . كانت الباصات تمر بالموقف من غير أن تتوقف ، فهي متخمة بالناس على الدوام . وفكر : « لو أني اعتمدت على قدمي منذ البداية لكنت قد وصلت الى هدفي الآن . » لم يبق سوى ساعة ونصف لموعد اغلاق الحلاقين . لا بد من التضحية بربع ليرة واستخدام سيارة تاكسي جماعية .

أوقف السيارة أمام مشغل الخياط المقصود .. وأخرج النقود

من جيبه ليدفع ربع ليرة للسائق وفوجيء بأن بقية الليرات الخمس التي اخذها من بائع التبغ تنقص ربع ليرة ! وقبل اتهام البائع راح يبحث في زوايا جيبه فلم يفز بغير التأكيد على انبائع التبغ قد سرقه ! وساءه هذا ، وهدهد الى خاطره أن ليلته هذه لن تكون حسنة .

كان الخياط لطيفا ، ولا يكف عن الثرثرة ومقارنة قطعة الجوخ التي حملها اليه بالقطع التي على رفوفه :

ـ انها من النوع الرديء ومن صنع بيروت .. نعم يمكنك أن تتأكد .. انظر .. انها ليست انكليزية .. ثم انها رقيقة جدا .

ـ نعم أعرف هذا .. لقد اشتريتها ، أصلا ، من أجل الصيف .

ـ بكم اشتريتها ؟

ـ بخمسين .

ـ لقد غشوك بها .. انها لا تساوي أربعين . على كل حال ، كيف تريد طرازها ؟

وبعد ان اتفقا على الشكل والمدة اللازمة لانجازها ، شرع الخياط في اخذ قياسه ، مستمرا في ثرثرته . ثم رجع الى تفحص القماشة وهو يسهب في التحدث عن عيوبها . وحدث أن أمسك بأحد أطرافها وشده بين يديه ليجرب متانتها فاذا بالنسيج ينشق بيسر ...

ـ انظر ... لتصدق . وا اسفاه على النقود التي دفعتها .. انها لا تساوي شيئا على الاطلاق .

قال الرجل بلهجة مجروحة :

ـ هذا هو النصيب !

ـ اتعني أنك ما زلت مصرا على خياطتها ؟

ـ ماذا افعل اذن ؟ انني محتاج اليها .

ـ انظر .. انت لن ترتديها أكثر من شهر واحد .. حرام أن تخسر عليها اجرة الخياطة .

ـ ولكني محتاج اليها .

بدا له أن الخياط لن ينتهي الليلة من جدله العقيم ، فحسمه بتحية عاجلة ، وانطلق الى اقرب موقف للباص . لم يبق سوى ثلاثة ارباع الساعة لموعد اغلاق الحلاقين . كان اكتشافه رداءة قطعة الجوخ قد انساه ربع الليرة المسروق .. ومع كل خطوة الى موقف الباص جعل غضبه يتزايد . وعندما ادرك الموقف وصل باص هابط من المهاجرين ، غير أنه تابع سيره بالسرعة نفسها ، ربما لان السائق لم ير ضرورة لهذا الوقوف هنا ، رغم انف قانون السير .. فجن جنون الرجل وانشأ يشتم الباصات وسائقيها وشتم التجار الغشاشين ، وظل بائع التبغ وراءهم لا يبين . ثم فكر : أانا مجنون ؟ كيف أصر على خياطتها وهي على هذه الدرجة من الرداءة ؟ أانا مليونير حتى لا أهتم ؟ يا للحمق ! سوف القي بها في وجهه ، وأقول له : خذ أيها الغشاش ، الم تجد غيري تغشه بها ! يا له من وغد ! يجب ان احطم فكه .

ورجع الى الخياط ، فاستعاد القماشة وهو يعتذر له ويشكره .

كان قد بقي نصف ساعة لموعد اغلاق الحلاقين .. وبعد أن انتظر بضع دقائق عند موقف الباص ، من غير جدوى ، اندفع الى احد الجلاقين في المكان نفسه ، قائلا :

ـ لا خيار بعد ... ها هنا يأخذون ليرة ونصفا ، بينما يأخذ حلاقي ليرة واحدة .. ولكن لا خيار الآن.. الوقت مضى ، سنضحي بنصف ليرة أخرى ، وأمرنا الى الله !

واستقر على الكرسي وسط هالة براقة من الترحاب واللطف .. وبعشرين حركة ديبلوماسية تناول الحلاق منشفة طويلة ، فضها ووضعها على صدره ، فقال الرجل :

ـ عفوا ، أريد أن أحلق شعري .

فتأوه الحلاق ، ونظر الى ساعة الجدار ، وقال :

ـ كم أنا آسف يا سيدي ! حان موعد الاغلاق .. بقي ربع ساعة .. وليس بالامكان ...

وعندما وصل البيت ، لم يعد يملك من الاماني سوى امنية واحدة : ان يتمدد على سريره ، ويغمض عينيه ، مدخنا التبغ ، وكانت الشتائم لا تنفك تتفثأ في نفسه بصمت ملوع ، كان يحس بأنه دمية في ايد خفية ، رعناء ، ولم يكن يريد بعد الا أن يتمدد على السرير ليريح جسمه من عناء هذا التعب .

على ان زوجته كانت موجودة . سألته وهي تحدق الى قطعة الجوخ :

ـ الم تجد خياطا ؟ ولكنك لم تحلق شعرك أيضا !

فروى لها كل شيء ، احس فجأة بأنه محتاج الى انسان يفضي اليه بما يخنقه من هم .. فروى لزوجه كل شيء . واذ ذاك لطمت الزوجة خدها في حزن ثكلى ، وصرخت :

– يا ويلي ! اذن ضاع ربع الليرة ؟ كيف لم تتنبه ؟

اذهب وطالبه الآن ، ماذا تنتظر ؟ يا للخيبة ! لو حدث هذا معي فما كنت تقول ؟ لماذا سكت ؟ أجب ! ربع ليرة ! هكذا ، يذهب هدرا ، وفوقه يهدر ربعا آخر من أجل تاكسي ؟ شيء جميل ! ومتى كنت ممن يركبون التاكسي ؟

واستطال كل هذا ، وانتهت ساعة بكاملها دون أن ينتهي .. فصاح حانقا :

– طيب ، طيب ، لقد اضعت انا ربع ليرة .. ولكن لماذا نسيت المصيبة الاخرى ، المصيبة الاكبر ؟ لن اخرج من البيت غدا ، فأعوض عن ضياع نصف الليرة .. ولكن ماذا تقولين بشأن القماشة؟ أم لانه أخوك ؟

خبطت صدرها بكف يدها ، وصاحت :

– أتجرؤ على اتهام أخي ؟ أهذا جزاء طيبته ؟ شيء جميل حقا ! لقد تجردت عن كل احساس نبيل ! نعم .. يا خسارة العمل الطيب مع الذين هم على شاكلتك !

– يا سيدتي ، أرجوك ، لا أريد اي عمل طيب ... سأرده اليه ، سأرده عسى أن يجد من يستحقه فلا يذهب خسرا ..

– أتعني أنك سترد القماشة الى اخي .

ـ طبعـــا .

ـ يا للخجـــل ! كيف ! وبعد شهر ؟ انه عـــار !

ـ ليكن ... طيب .. انه عار ... والآن دعيني ، أريد أن أستريح .

ـ من يعش معك لا يعرف راحة .

احس بجسمه ثقيلا على الفراش .. تخدر . وأخلد للتفكير . فتابعت الزوجة :

ـ على كل حال ، أفضل القاءها الى الطريق على اعادتها .. أتسمع ؟ شيء معيب !

وخرجت من الحجرة ، ثم عادت بعد دقائق ، وهي تستطرد :

ـ شيء معيب ! رجل ، مثلك ، يدع الآخرين يسرقون منه ربع ليرة ، هكذا ، ببساطة ! وأين ترى كان عقلك حينئذ ؟ يا للعيب !

كان يعرف أن هذا الشيء يمكن أن يستمر ويستمر حتى نهاية الليل .. فلم يتخل عن الصمت .. الا أنه ظل يفكر بالطريقة التي يحصل بها على بذة جديدة ، وفي أقرب وقت ، كي يؤدي واجبه ، واجب الاسرة التي هو ممثلها ، في عرس ابن عمه .

دمشق ١٩٦٤

هزاع السالم

ثلاثية قصصية

المستوصف

استسلم هزاع السالم لغفوة قصيرة حلم خلالها بأنه يفلح الارض بسكين مثلمة صدئة ، ويبذرها بحبات من القمح تشبه رأس طفله ، ثم أفاق من النوم يتآكله ذعر خفي ، وحملق بعينين محمرتين ناعستين في اللفافة التي تستقر في حضن زوجته وتضم طفله المريض . ودفع التطير من حلمه العجيب بتمتمة يستعيذ بها من الشيطان الرجيم ، وهو يمد يده ويكشف الغطاء عن وجه الطفل ليطمئن عليه . واذ رآه يتنفس ، سحب يده واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم مرة أخرى . وكانت مقبولة تنظر اليه قلقة ، فقال لها باقتضاب :

– حلمت حلما مزعجا .

– فارتعدت خائفة وهي تهتف :

– اللهم ابعد الشر .

وضمت الطفل الى صدرها بقوة ، بحركة تلقائية . قال هزاع وهو يفرك وجهه وعينيه براحة يده :

– ما دمنا على هذه الحال .. فيجب أن نتوقع أسوأ الشرور

دائما . ماذا تظنين ؟ نحن لسنا من خلق الله . اننا مجرد دواب تعمل وتمرض وتفطس في كل وقت .

ولكن مقبولة لم تقتنع بأنها ولدت هذا الطفل ليكون دابة من تلك الدواب التي يتحدث عنها زوجها . هي مستعدة للموت بارتياح، اما ان ترى طفلها مهددا بالاحتضار ، او حتى بالمرض ، فان كل شيء عندئذ يصبح غير معقول ولا محتمل بأية صورة ولاي سبب ظاهر أو خفي .

المقاعد الخشبية الثلاثة في بهو الانتظار لم تتسع للمراجعين فاقتعد معظمهم بلاط الارضية . والوقت يتضاحى ، يقترب من الظهر ، والطبيب لم يحضر بعد . كان على هزاع السالم أن يكون في حقله الآن . ولا ريب في أن جميع هؤلاء المراجعين مثله ، لهم أعمالهم الضرورية في الحقول وغيرها ، جاؤوا من قرى المديرية الى مركز الصحة قبل طلوع الشمس او بعدها ، مشيا على اقدامهم .

واذا فرضنا أن هذه الاعمال لن تتأثر كثيرا بهذه العطالة ، وان الجهد الذي بذل في غيرها ، في السفر والانتظار والقلق ، مبرر بالشفاء المطلوب على يدي الطبيب .. اذ فرضنا ذلك ، فما هو تبرير هذا التأخر من قبل الطبيب ؟

وغمغم هزاع :

ــ لقد طال انتظارنا . جئنا العيادة قبل أن تفتح ، وها هي قد اكتظت بالبشر وتضاحت الدنيا ولم يشرِّف التختور .

قالت مقبولة :

ــ لو كنا نملك نقودا لذهبنا الى تختور آخر . مراكز الحكومة

لا تجد نفسها ملزمة بالعناية بنا ما دامت العناية مجانية . اما في عيادة التختور محمود مثلا ..

قاطعها الرجل باحتقار :

ـ الكل ينظرون الينا كدواب . التختور محمود ينهبنا .. المعلم صالح اكتشف اللعبة .. قال لي ان هذه الابر ليست دواء .. انها ماء مقطر . يضحكون علينا ليأخذوا كل ما نملك . نحن على ما يظهر محرم علينا أن نملك نقودا لاي شيء . كل قرش يجب أن ينهب حالما يدخل قبضتنا المهترئة التي لا تحسن صيانة النقود .

ـ المعلم صالح ابن حكومة فلماذا لا يخبرها ؟

ـ الحكومـــة ؟

واحس باحتقاره لامراته يبلغ حد الرغبة في ان يرفسها برجله . وقال :

ـ يا حمارة .. الحكومة لا تهتم بالدواب . نحن دواب الا تفهمين ؟ ثم ان التختور محمود بعائلته وبما يملك يستطيع ... يستطيع أن ينقل رئيس المخفر نفسه ويقلع عينه ، فهل يعسر عليه أن يسقط الحكومة ويستبدلها بأخرى ؟

ـ التختور محمود ؟

ـ اي ، التختور محمود .. انه كما سمعت ابن خالة نائب بالمجلس .

ـ بالمجلس ؟

ـ اي ، مجلس النواب .. البرلمان ؟

ـ اه ! انا الله .

وعند هذا الحد كف هزاع عن بوحه اليائس لزوجته ، ورجع الى نفسه في خواطر مختلطة لم تلبث أن توقفت بدورها عندما دخل طبيب المركز ، فاشرابت اليه العيون بنظرات ابتأس فيها رجاء طويل مل الانتظار . ولا يعرفون في هذه اللحظة كيف مرق الممرض من غرفة المعاينة المغلقة حتى صار بين يدي الطبيب قبل أن يتجاوز عتبة الدار ، وشرع ينحني ويرحب بكلمات محذلقة وابتسامة هشة لها نكهة الليمون الفاسد .

كان الطبيب يرتدي بذة أنيقة بيضاء من قماش ثمين ، مكوية ونظيفة ؛ وتتدلى من عنقه ربطة حريرية زرقاء تتعاكس على أديمها خطوط رمادية ، شكلتها بصدر قميصه حلية معدنية صفراء ، هي أغلب الظن من الذهب . وبدا وجهه ناعما أملس ، موردا بالعافية ، وحليقا بعناية زائدة ، ولا بد أن حاجبيه الرفيعين قد زوقا بالملقط بالعناية نفسها . وقد ابتسم للممرض ورد تحيته بحبور ، في حين اهمل الالتفات الى اية تحية اخرى بذلها بعض المراجعين واقفين منحنين .

احس هزاع السالم بالفرج ، فحمد الله . وتململت مقبولة وشرعت تعد الطفل لحمله الى داخل حجرة المعاينة حالما يطلب اليها ذلك . ان طفلها قد سجل اول مراجع .

على ان وقتا غير يسير مضى على باب هذه الحجرة قبل أن يفتح ، ولكن لاستقبال رجل من اهل المديرية يرتدي ملابس الوجاهة والعز ، رحب بـه الممرض ايما ترحاب ، وادخله الغرفة بسرور واضح ، واغلق الباب .

أصبح الوقت ممرضا الآن ، يمر مثل كديشة ضعيفة تدور حول محور الفراف دون أن يدور دولابه . وزفر هزاع نفسا تعفن من حبس طويل . والتفت يتأمل وجه طفله الجامد الشاحب . واتبع نظره قائلا :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !

قالت مقبولة :

ــ لو كان لدينا نقود لقضينا الحاجة منذ الصباح .

فرفع هزاع يده وحركهاحركة نصف دائرية واعادهاالى ركبته. ما عسى ان نفعل ياامرأة ؟ وراقب باب حجرة المعاينة وهو يتساءل :

« ماالذي يفعله الطبيبهناك؟ » وباغتتهرغبة جريئة. . استمدها من احتضار ابنه ، من ذلك الضعف المخيف الذي تلبد في قلبه هو سنين وسنين وسنين .. وهب الى الباب ، وفتحه ..

الطبيب والوجيه يرتشفان القهوة ويضحكان ، أهما في جلسة سمر ؟

وحملق الرجلان في كيانه بانزعاج ، لم يلبث أن ظهر في عيني الطبيب غضبا مرعبا . وصرخ الطبيب :

ــ ما هذه الوقاحة ؟ من سمح لك بالدخول ؟

وفي الحال شعر هزاع السالم بالارتباك ، لقد قام بعمل غير مشروع .. وتلجلج قائلا :

ــ لا تؤاخذني .. لا تؤاخذني يا تركتور .. لم ..

وغطت صوته قهقهة انفجارية انطلقت من فم الوجيه ، ضحك معها الطبيب محمر الوجه وهو ينظر الى الوجيه ، ثم التفت الى الفلاح صارخا :

ـ تراكتور يهرس عظامك ! أما انك لحمار قذر !

طأطأ هزاع السالم راسه خجلا وكف عن محاولة الاعتذار . لقد زاد الطين بلة ، وبدلا من تهدئة غضب الطبيب صب عليه البترول بعدم حذره .

ـ هيا اخرج واغلق هذا الباب يا حمار !

فانزلق هزاع الى الوراء متمتما :

ـ أمرك يا بك . . أمرك ، لا تغضب ، كما تريد .

وأغلق الباب وراءه ، وتوقف يلتقط انفاسه المبهورة ، واخجله اكثر أن يرى أعين المراجعين جميعا مصوبة نحوه بنظرات لم يستطع تبين فحواها وحاول تغطية موقفه وحيرته مغمغما :

ـ الى متى يريدنا ان ننتظر اذن ؟ انها حال لا تطاق !

وجلس بجانب زوجته دون أن ينظر اليها . عندئذ سرت همهمات المراجعين ، وصلته اصوات منهم تردد تأييد مانطق به من احتجاج ، فأحس بالربكة تفلته وانطلقت نفسه من اسار دبق . فرفع عينين شاكرتين الى الوجوه المربدة حوله ، ورمقها بشعور ودود . غير أنه سمع صوت مقبولة مقرعا :

ـ أكان ضروريا اغضاب التختور ؟ استر علينا يارجل ، فنحن تحت رحمته .

قال منتفضا :

ـ نحن تحت رحمة الله يا امراة ! العبد لا يكون تحت رحمة عبد آخر .

ـ والله يا أخي انت تخرف ! طول عمرنا ونحن تحت رحمة هذا وذاك من الناس .. من شيخ العشيرة الى مختار القرية الى كل دركي ورئيس مخفر .. الى التاجر ، والسمسار ، والطبيب .. الكل من نحتاج اليه في هذه الدنيا .

أفحمته ، ابنة الكلب ! وينبغي أن تخرس ولا تتظاهر بالحكمة والمعرفة . وبلغ به الحنق درجة الفيض ، ارغى قائلا :

ـ انها الدنيا العكروتة ! ماذا في يدنا أن نفعل ؟ لقد خلقنا هكذا ، لنكون للاخرين دواب ارذل من الدواب .

قالت مقبولة بصوت حنون :

ـ طيب ، هدىء خاطرك ياهزاع . . انه أمر الله ، ولا راد لأمره .

قال من بين اسنانه :

ـ أنت مخطئة .

ثم استدرك :

ـ امر الله ؟ أيكون الله ظالما الى هذا الحد ليجعل منا عبيدا وبهائم ويجعل من الآخرين شيوخا وامراء وأغنياء يملكون رقاب العباد ؟ ما هذا التخريف يا امراة ؟ تقولين امر الله ؟ أمر الله بالخير والعدل .

قالت مسالمة :

ـ اه ، ان شاء الله . اليس هذا ما نتمناه .

وانفتح باب الحجرة ، وخرج الوجيه مودعا بالحفاوة من الممرض والطبيب الذي بدا على عتبة الباب ضاحكا منشرح الصدر . وبعد ان أغلق الباب بدقائق خرج الممرض وقال بوقار :

ـ سأنادي عليكم كلا بدوره . أريد أن تعرفوا أن النظام والهدوء هما المطلوبان ، حاذروا ازعاجنا . والآن .. من هو الاول في القائمة .. هه .. قم يا هزاع وادخل ابنك .

وقام الرجل ليأخذ الطفل ، الا أن أمه سارعت الى النهوض به والدخول الى حجرة المعاينة فتبعها دون اعتراض .

وقفا عند عتبة الباب ينظران ، محدقين الى الطبيب الذي كان يتطلع الى شيء ما امامه على المكتب . وبعد لحظات ، رفع عينيه ونظر اليهما ، ثم نبر بصوت عدائي :

ـ هذا أنت يا وجه القرد ؟

فابتسم هزاع وقال باستكانة :

ـ لا تؤاخذني يا .. بك .. انما انا كنت قلقا على الطفل .

قال الطبيب ساخرا :

ـ نعم ، على هذه الزيادة في الوباء . الا تقول لي لماذا تقلق ؟ مخلوق مثلك يجب الا يخلف . اتعرف لماذا ؟

وضحك هزاع مجاملا دون أن يفوه بكلمة ، قال الطبيب :

ـ لينقرض جنس البهائم الذي على شاكلتك .

قال هزاع ضاحكا :

ـ صدقت يا ت .. يا بك .

ولكن الطبيب نبر فجأة :

ـ ما به خليفتك الغالي ؟

فتقدمت الام بلهفة نحو الطبيب ، دافعة الطفل فوق يديها الى الامام .

صاح الطبيب :

ـ كفى ، قفي عندك . ارفعي الغطاء عنه .

وفي الحال لحق بها زوجها ورفع الغطاء عن الطفل .

نظر الطبيب الى وجه الطفل لحظة ، ثم مد جسمه ويده ، ورفع الجفن عن احدى العينيين ، وعاينه . وتفكر قليلا ، وامر الممرض بتسجيل نوع الدواء وكميته ، تساءلت المرأة بحذر وبصوت يكاد لا يسمع :

ـ ولكن ، ما به يا تختور .

ـ لا شيء ، يلزمه حمية عن الطعام لمدة اسبوع .

وأشار لهما بيده أن ينصرفا . الا أن الام الحت قائلة :

ـ اهناك خطر على حياته يا تختور ؟ قل لي ، أطال الله عمرك .

صاح بقرف :

ـ لا ، لا تخافي ، دعينا نر غيرك ، هيا .

ودفع بهما المرض الى الخارج ، هامسا في اذن الام :

ـ الخطر يزول اذا استعمل الدواء بصورة جيدة .

وحمل هزاع السالم ورقة مصرورة على مسحوق ، وضعها في عبه ، ومشى أمام زوجته التي اردفت الطفل على ظهرها ، ورجعا الى القرية .

حال وصولهما البيت ، اخرج هزاع الورقة ، وأمر زوجه باحضار طاسة الماء . وفض الورقة فوجدها فارغة . لقد تخلخل صرارها في الطريق وتسرب منها المسحوق بأكمله !

وأقبلت مقبولة تحمل طاسة الماء وهي تقول :

ـ يجب أن يستعمل الدواء بصورة جيدة . هكذا قال مساعد التختور .

الجنبازي (استعار لفظه ومعناه من الجمبازي) معروف في دير الزور بأنه الوسيط الانتهازي ، البارع في اللعب على الفلاحين لسلبهم بضائعهم على الطريق الى المدينة بأبخس ثمن ، يجنون من فرق بيعها للتجار ربحا كبيرا سرعان ما يثريهم ويحولهم بعد قليل الى تجار. وهم في الاغلب يعملون أزواجا كما في هذه الاقصوصة .

الجنـــبازي

بدت غبشة الفجر ستارا حريريا شفافا ومتلألئا بندى الصباح، راى الاشياء من خلاله أكثر طراوة وضعفا . كانت الديكة لا تزال ترسل نداءاتها التقليدية الغامضة تتجاوب أصواتها من كل جهة كأنها استغاثات سجناء محكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة .

وتمطى هزاع السالم ، وتثاءب ثم غمغم :

ـ الوقت مبكر .

فقالت مقبولة :

ـ امامك مسيرة ساعتين .

وارتفع صياح الديك الذي خرج من قنه توا ، فارتعش هزاع تلقائيا . لم يكن يريد هذه السفرة ، وكان على مقبولة أن تفهم هذا قبل ان تقول له ذلك . يبدو ان رحمة الله مماطلة ، لا تهبط علينا عندما نطلبها ونكون في أمس الحاجة اليها . الخروف ينبغي بيعه حالا ، قبل ان ينمو اكثر ويزداد وزنه ويعطي زيادة في السعر ، لان المرض لا ينتظر ، والطبيب لا يقبل التأجيل في الدفع كتاجر القماش وتاجر اللوازم الزراعية .

ولاحظت مقبولة تلكؤه :

ـ علامك لا تتحرك يا رجل ؟

القرية لم تستيقظ بعد تماما ، رغم صياح الديكة ، والنسيم الرطب يحمل رائحة أشجار الغرب من شاطىء الفرات ويمزجها برائحة التربة المستسلمة الى حلم العروس بليلة تخصب الاماني وتعطي العين الساهرة طمأنينتها العذبة .

ـ تحرك يا رجل ، سيفوتك الوقت .

ـ لماذا لا تذهبين الى شأنك وتتركيني ؟ أم تراك تخاطبين جاهلا لا يحسن التصرف .

ـ اقول انه يكون افضل لو ذهبت وعدت باكرا ، من اجل الطفل المريض .

ـ اعرف أن الطفل مريض ، واعرف كل شيء . كفي عن الهذر واذهبي الى شأنك .

انه يعرف ايضا أن مقبولة أم ، والام هي التي تمرض عندما يمرض طفلها . الا انه يكره هذا الالحاف مع ذلك ، فليس ثمة قائل بأن الاب يحب أن يكون طفله مريضا .

وتحرك باتجاه الخروف ، الذي كان مسترخيا على الارض ببلادة وطمأنينة ، جنب أمه ، ومسح على راسه بيد امتلأت بالندم منذ الآن . او بقي هذا الخروف لدينا حتى الخريف لتصاعد سعره .

نحن في الخريف نحتاج الى نقود كثيرة . ونهض الخروف ببطء وجعل يحك وجهه بذراع هزاع السالم وركبته . ثم اقبلت مقبولة برغيف من الخبز انجزته في تلك اللحظة على الصاج ودسته في يد زوجها ، وسألته :

ـ اتريد بصلة ؟

فشرع هزاع يلتهم الرغيف ولم يرد ايما جواب . ثم انتزع الخروف من مكمنه وجره الى الطريق ، وصوت الزوجة يلاحقه :

ـ احذر الغبن يا هزاع ، أهل المدينة يبلفون الشيطان نفسه .

وكان يريد ان يرفع صوته عاليا ليقول لها : لا تخافي . ولكنه تضايق من هـذا قدر ضيقه بتحذيرها وبتلك اللهجة الدعية في

صوتها .. انها تظن أنه جاهل ، غشيم . لقد نسيت صفقتها الخاسرة العام الماضي ، عندما ذهبت بالديك ورجعت بثمن صوص .

على أن هذه الثقة بنفسه لم تكن راسخة بهذا المقدار . ان أذكى فلاح ، في الجزيرة والشامية على السواء ، لا يستطيع التغلب على خبث الحضري . أهل الحضر يستطيعون اللعب على الحبال بمهارة، وينتزعون الكحل من العين دون أن تنتبه الضحية في الوقت المناسب .

ومد خطواته على الطريق المتربة المتعرجة ، الموحلة أحيانا من تخرب في هذه الساقية أو تلك ، دافعا بالخروف أمامه ، وبقدر ما كان قلقا ومتوجسا من الوقوع في شرك حضري من هؤلاء الذين لا يعرفون الحرام من الحلال ، كان الخروف سعيدا بهذه النزهة الصباحية مع صاحبه ، ينط على حوافي الطريق بمرح ، ويتصيد الاوراق المتساقطة من الاشجار فيلتهمها متلذذا .

وبعد ساعتين تقريبا ، أشرف هزاع السالم على المدينة ، ورأى الجسر الكبير المعلق فوق الفرات . خطوات قليلة فوق الطريق المعبد تفصله عن الجسر . حسنا . ليتوكل على الله . وأخرج كلاشه من عبه ووضعه على حافة الاسفلت ، ثم دس قدميه داخله . عندئذ سمع صوت حضري يتساءل :

ـ أهذا الخروف للبيع يا فتى ؟

وفوجىء برجل ربعة يسحب الى جانبه دراجته الهوائية . فنظر اليه متفحصا وعلى حذر . رجل عادي لا يدل مظهره على تميز جلي ، اهو طيب ام شرير ؟ مخادع أم شريف ؟ وهو اقرب الى أن

يكون ريفيا في لباسه الذي يتألف من العقال حول الراس وزبون طويل فوقه معطف من النوع الذي يباع في البالات . وتحير . الا انه لم يستطع الكذب ، قال :

ـ اي ، للبيع .

وترك الحضري دراجته مسندة الى سياج المشتل البلدي جانب الطريق ، وامسك بالخروف في الحال وراح يجس جميع أجزاء جسده بأنامل تظهر حنكة في مثل هذا الامر من حركاتها السريعة الراشحة بالثقة ، أما هزاع السالم فتوقف يتأمل كل شيء بدقة وحذر : انامل الحضري ، ووجهه ، كل نأمة على حدة ، محاولا تحليلها وتفسيرها باحساسه الموسوس .

وتم الفحص بسرعة لم تتح له الوصول الى أي متكأ . وبنفس اللهجة الودية قال الحضري :

ـ يظهر أنه لم يعلف جيدا . ليس فيه اكثر من عشر حقات لحما صافيا . الا أنه لحم رخو مع ذلك .

قال هزاع :

ـ هذا هو الموجود .

فنهض الحضري عن الارض ، وظل نظره فوق الخروف :

ـ كم تطلب فيه ؟

ـ أتريد شراءه ؟

ـ سنرى .

ـ ما الذي تعنيه ؟ انني في عجلة ، فلا تؤخرني .

ـ انتظر . انا في الحقيقة لست محتاجا اليه . لكنني .. لمجرد مساعدتك . رأيتك طيبا ومحتاجا فأردت توفير بقية المشوار عليك. انت لن تأمن أن يبلفك التجار فيالسوق . قلت لنفسي انقذ هذا الفلاح المسكين من أيديهم . علي الطلاق ليس لي من هدف آخر .

ـ حفظك الله من كل سوء يا سيدي .

ـ نحن اخوان يا رجل ، والله خير شهيد .

ـ طيب . كم تدفع فيه أنت .

ورجع الحضري يروز الخروف ، وانتظر هزاع السالم وقد داخله شيء من الاطمئنان الى الرجل . ان لهجتهخالية منكل خبث ، وعينيه تنضحان بالطيبة والوداعة ، بل بالمودة أيضا .

وقام الحضري عن الخروف يقول :

ـ انه .. لا يساوي .. أكثر من عشرين ليرة .

واحس الفلاح بقلبه يهبط الى اسفل بطنه :

ـ عشرين ؟

ـ لا اخفي عليك سرا يا اخ .. السوق سيئة اليوم .

ـ سيئة سيئة ، مهما كانت سيئة ، ان خروفا كهذا يساوي.. اربعـين .

ـ أربعين ؟

واطلق الحضري ضحكة مجلجلة :

ـ انت حسن النية او ساذج . أهذا الخروف ، بذمتك ، يساوي العشرين التي اعطيتك اياها ؟ علي الطلاق ، لولا شفقتي عليك وحرصي على الا تقع بيد جنبازي ابن حرام .. لما دفعت لك اكثر من خمس عشرة ليرة . انا على كل حال لست احتـاج الى الخروف ان كنت لا ترغب في بيعه .

ـ بلى ، أرغب . ولكن ليس بهذا السعر . انه لا يساوي تعبنا في رعايته .

ـ انت وشأنك . اذهب الى السوق اذن وسترى ان كنت تستطيع الحصول على عشرين فيه .

وتحرك الحضري وامسك بمقود دراجته ليمضي بها . الا انه ، على ما يبدو ، أحس بأن الدراجة معطوبـة في مكان ما ، فتلبث يتفحصها . وقف هزاع السالم يراقبه متفكرا ... لا يبدو عليه انه يحاول خداعي . وانا نفسي حذر ، انني كما ترى اناقشه ولا ادع له فرصة خداعي اذا كان يبغي الخداع . وسأل الحضري :

ـ اذن .. الاسعار هابطة اليوم ؟

ـ هي في هبوط مستمر يا اخ . غدا ستكون اردا .

ـ حقا ؟ ولمـاذا ؟

ـ اللحم اصبح رخيصا . انه يأتي في الثلاجة من أوربا ويباع بنصف سعر اللحم الطازج .

ـ هـــا !

ـ ومع ذلك ، ان كنت لا تصدق ، فلنسأل هذا الرجل عابر الطريق . انه غريب عني كما هو غريب عنك . هل تقبل حكمه ؟

ـ لا ، لا لزوم لهذا ، أنت طيب وأنا أثق بك .

ـ لا والله ، من اجل أن تكون واثقا تماما ، سنحكمه بيننا .

وكان الرجل العابر يمتطي دراجة ويرتدي اللباس نفسه . وقد لبى دعوة المتبايعين الى التحكيم بأريحية .

ـ بالله عليك أيها الاخ . . أيساوي هذا الخروف اكثر من عشرين ؟

ـ عشرين ؟ انه لا يساوي حتى العشرين . السوق سيئة جدا يا أخ .

ـ هه ، الم أقل لك .

ـ ولكن ، بما ان الرجل فلاح مسكين ، وهو حتما يحتاج الى النقود من اجل الطبيب والدواء . . .

قاطعه الفلاح مندهشا :

ـ صدقت والله يا اخ . . كأنك في قلبي .

قال الرجل العابر :

ـ أنت هو الذي في قلبي يا اخ . انني اتعاطف مع الفقراء لانني أنا ايضا فقير . لا تنظر الى ثيابي . . انها الثياب الضرورية للمدينة مثلما هي ثيابك ضرورية للقرية .

واحس هزاع السالم بالتعاطف مع الرجل فعلا . احس بأن دمعة ساخنة ممتنة ستسقط من عينيه تعبيرا عن هذا التعاطف ، عن المودة الصافية التي يحتاج اليها هو وأمثاله من قبل اهل المدينة . فهمى على قلبه فيض من الحب يبلغ حد الوجد ، وملأت خياله صور براقة من الصحة والعافية ، تزين الدنيا ، وتوشح طفاله الذي تركه مريضا في احدى زوايا الكوخ المدخن ، المهترىء . قال للرجل العابر :

ـ الله يديم أمثالك من الطيبين .

فأخذ الرجل العابر بذراع الفلاح ونأى به خطوتين ، وهمس في أذنه بمودة كلية :

ـ يبدو ان صاحبنا غشيم لا يفهم بالبيع والشراء . اقبل بالعشرين وارجع بها غانما قبل أن يتسلط عليك جنبازي بارع .

وأفلت ذراعه من يده والتفت الى الشاري قائلا :

ـ على خيرة الله .. ادفع له العشرين .

وامتطى دراجته متابعا طريقه الى شأنه ...

ودون ابطاء رفع هزاع السالم حذاءه ووضعه في عبه ، وسلك طريق العودة الى قريته وانامله تتحسس ورقتي النقد المتساوتين ويفكر بقدرتهما العجيبة رغم رقتهما وتفاهة وزنهما ومادتهما .

وبعد عدد من الخطوات ، التفت يتطلع الى الوراء يريد أن يرى الخروف مودعا بنظرة أخيرة ، فرآه مربوطا الى جذع شجرة يجلس تحتها الرجلان وهما يدخنان ويتضاحكان : الشاري والحكم .

فتوقف قليلا ، وشخص اليهما ببصره متفكرا : بعلمي انهما لا يعرف بعضهما بعضا ! أهما جنبازيان شريكان ؟ أوقعت في الشرك اذن ، رغم كل هذا الحذر ؟

وتباطأت خطواته الآن ، أثقلها أسى له طعم الفلفل الحاد . وتلمس الورقتين النقديتين كما لو كان يتلمس أفعى في الظلام . أكان يمكن أن تكون ثلاث ورقات ، مثلا ، لو كان حذرا اكثر ؟ لو كان هؤلاء الحضر نبلاء اكثر ؟

ومقبولة هناك ! كيف يواجهها وقد أثار عليها عاصفة من شره ، العام الماضي ، عندما رجعت مغبونة في صفقة بيع الديك ؟

وكانت الطريق المتربة المتعرجة ، الموحلة أحيانا من تخرب في هذه الساقية أو تلك ، تمتد أمامه طالبة المزيد من الخطوات السريعة لكي تنتهي به الى طفله المريض الذي يحتاج الى علاج سريع يعيد اليه القوة والعافية .

مقبولة

امس ، حينما اضطر هزاع السالم وزوجته مقبولة الى حمل طفلهما الى المستوصف الحكومي ، كان واضحا أن مضاعفات خطرة اصبحت تقربه من الموت . قبل ذلك كانت دلائل المرض قاصره على حرارة غير طبيعية يتوهج بها جسد الطفل ، وعلى اسهالات تطورت خلال عدة ايام فغدت حادة حتى جعلت من الطفل هيكلا عظميا هشا ، مكسوا بجلد أشبه بواحدة من الخرق التي يقمط بها . ولعل تقيؤه جزءا كبيرا مما كان يرضعه قد زاده قربا من الهلاك . مريض ولا يتغذى ! هذا هو على الاقل ما فكر به هزاع السالم ورددته مقبولة .

وعند رجوعهما من المستوصف ، يحملان الدواء مصرورا بقرطاس ، مثل صرار أي حاجة يشتريها المرء من الدكان ، اكتشفا ان القرطاس مصرور على نفسه وليس على اي مادة اخرى . وقد اختلف الزوجان الفترة . هزاع اصر على أن الممرض وضع مسحوقا ابيض على القرطاس ثم صره . رآه يفعل هذا بعينيه الاثنتين . ومقبولة اكدت على أن « المقصود بالدواء هو القرطاس نفسه ، ننقعه بالماء حتى يتحلل ونسقيه للولد . » ولكن هزاع سخر منها ومن

جهلها ، شاعرا بأن مصيبته بزوجته لا تقل قهرا عن مصيبته بعلة ابنه البكر . عندئذ تساءلت الزوجة بلهجـة مبطنة بالسخرية ، ولعلها أرادت افحامه :

ـ طيب ، اذا كان الامر كما تدعي ، فأين هو ذلك المسحوق اذن ؟

قال هزاع مخمنا :

ـ لا بد أنه تسرب من الورقة .

ـ كيف ، ما دامت مصرورة ومحفوظة في عبك .

ـ مشينا ساعة بكاملها ، والورقـة تهتز في عبي . الاهتزاز المستديم مدة ساعة خلخل الصرار . المسحوق الناعم يتسرب في هذه الحال من خرم ابرة .

ولكن عقل مقبولة لم يشأ أن يأخذ بتفسير يبقى تخمينا مـن تخمينات زوجها . وهكذا ، انتهى الزوجان الى أن ينقعا القرطاس بالماء ، ثم يسقياه للطفل ، الذي لم يسبـق لفمه أن دخله سوى الحليب ،كان طفلا صغيرا ، في شهره الخامس . فتحت مقبولة فمه وشرعت تدلق فيه الماء بالتدريج وعلى دفعات . ثم غيرت حفاظه وركنته على حشيته . وبعد قليل هبطت حرارة الطفل ، وفتح عينيه ، كان واضحا انه تحسن . وعندئذ شعر هزاع ، لاول مرة في حياته ، بأن زوجته ابليسة . انه القرطاس حقا ، فهل توهم في تلك اللحظة أن المرض كان يضع مسحوقا أبيض على القرطاس ؟ يجب أن يعترف اذن بأن هذه المرأة ابليسة حقيقية ، والا فكيف

أمكنها ان تعرف السر الذي خفي عليه ؟ ولكن مقبولة لم تستغل هذا الانتصار كما خشي وتحسب . فرحتها بأثارة انتعاش هزيلة ظهرت على طفلها ، أنستها كل انتصار آخر .

غير ان ذلك لم يدم سوى ساعة واحدة، انتكس الطفل بعدها ، ارتفعت حرارته ، وتقيأ جرعات الحليب القليلة التي مصها من ثدي أمه .

وفي هذا الصباح ، بينما قاد هزاع السالم الخروف الى المدينة ليبيعه ويعالج بثمنه طفله ، كان الطفل يحتضر دون انذار صريح .

فعندما رجع هزاع عاجلا ، يحمل ثمن الخروف ، صاح ، قبل وصوله البيت :

ـ هيا يا مقبولة . احملي الولد ودعينا نسرع الى التختور .

كان قد غبن في صفقة البيع ، بلفه الجنبازي ببساطة متناهية ، فرجع بنصف قيمة الخروف . ولكن قلقه على وليده البكر غطى على حزنه وأسفه ازاء هذه الخسارة ، رغم فداحتها بالنسبة لفلاح مثله . ولما لم يسمع صوت مقبولة ولم يرها خارجة ، صاح باسمها يحثها متعجلا .

الا أن البيت ظل غارقا في السكينة ، لم تظهر مقبولة ، ولا سمع لها صوتا . وما كاد يضع قدمه على عتبة البيت حتى قف شعر رأسه ، وهبط قلبه يضغط على معدته . توقف يحملق ، ويدير بصرا زائغا في الحجرة الطينية السَّخِمَة ... كانت مقبولة تتصدر الحجرة بجانب حشية الطفل الممدود فوقها كالعادة . بيد أن مقبولة لم يكن وضعها عاديا ، كانت مخطوفة اللون ، متشمعة الوجه ،

منكسة راسها على صدرها ، وهي تقعد حاضنة ركبتيها . وأكد له معنى الصورة ذلك الاطار المفرط في صراحةدلالته ، هي الى قسوة الشنق اقرب .. فثمة عدد من النسوة — من اهله واهلها ومن الجيران — كلهن يجلسن جلسة مقبولة تلك ، جامدات جمودها ، وسط عتمة الكوخ ورائحة السخام .

لم يحتج الى السؤال . ولكن السؤال انطلق تلقائيا :

— هل حصل شيء للولد ؟

يا الهي ! كم بدا السؤال نافلا وسخيفا بعد نطقه ! وعلى الاخص بهذه الصيغة ... حصل شيء !! هل الموت شيء ؟

على كل حال فان مقبولة جاوبته . أجهشت بالبكاء ، بطريقة اتضح له منها ان بكاءها هذا كان مستمرا منذ فترة من الزمن .. قد تكون الفترة التي استغرقتها رحلته برمتها . وفي الحال علا نشيج النسوة جميعا .. وهدلت مقبولة بتفجع :

— يا ويلي ، يا بنيَّ ! يا سالم يا ابن هزاع ! يا أول فرحة في قلب أمك !

فتقدم هزاع باذلا الجهد ليتماسك امام النساء ويحافظ على مظاهر رجولته . وركع لصق الطفل ، ومد يدا مرتعشة ، تريد أن تتأكد من حقيقة مرفوضة وبغيضة . رفع الغطاءعن وجه ابنه . هذا هو ، كما تركته . لم يتغير . وكما كان يفعل قبل ساعات ، كلما عاود طفله ليطمئن عليه ، وضع كفه على جبينه ، كأنه يريد أن يعاين درجة حرارته .. هل ارتفعت أكثر ، أم انخفضت ؟

في هذه المرة ، كان الموت ولم يكن المرض !

كانت البرودة التي تختلف عن كل برودة اخرى ! برودة يمكن القول بأن لها طعما حامضا مثل طعم الصدأ ، وملمسها جاف ، تحس بأن ما تلمسه شيء ما ، وليس انسانا .

هذا هو ابني اذن !

وظل راكعا ، حانيا هامته ، يداه على ركبتيه ، ووجهه غيمة رمادية داكنة فوق الجثة التي كانت ابنه سالم هزاع السالم ، المولود منذ خمسة أشهر فقط !!

ظل هكذا ، كمن ينتظر أن يراجع الموت نفسه ، ويعيد النظر في حسابه . الا يجوز أن يكون قد ارتكب خطأ ؟ امهر المحاسبين والتجار معرضون للخطأ في حسابات قد تكون تافهة .. تتعلق بعدد من الليرات أو حتى القروش ، أليس كذلك ؟ ولكن خطأ من هذا النوع يرتكبه الموت .. يتعلق بحياة انسان .. فيروح ضحيته وليد صغير كهذا .. كسالم الذي لم يلحق أن يتم شهره الخامس !! خطأ من هذا النوع !! لا !! انه خطأ شنيع ومريع ! وحريٌ بالموت اذن أن يكون دقيقا أدق من أي محاسب ، وهو ينظم حساباته الخاصة بأرواح البشر . أما كان يقصد شيخا من هؤلاء الشيوخ المرضى العاجزين ؟ لا ريب في أن ثمة شيخا كهذا ، يدعى سالم هزاع السالم ، وأمه أيضا تدعى مقبولة ، تجاوز السبعين من عمره بخمسة اشهر ، في مكان ما من هذه المنطقة .. هو المقصود وليس ابني هذا . على الموت أن يراجع نفسه اذن ، فلا يكن مثل هؤلاء الاطباء الذين لا يبالون في معاملة أمثاله ، أخطأوا أم اصابوا . والا كان معدوم

الضمير ، وكان قلبه نتاج حليب فاسد رضعه من ثدي عاهرة !

ويبدو ان هزاع السالم قد اختلط عليه ، ولم يعد ممكنا تقدير الوقت - بالنسبة لعقله ومشاعره الذاهلة الواجفة ! أحس اخيرا ، بعد دقائق قليلة ، بأنه انتظر دهرا طويلا . فاعتدل ، وغير مكانه . . جلس عند نهاية ساقي الجثة ، ساندا ظهره الى الجدار الطيني .

اذن . . الموت لا يريد الرجوع عن خطئه . التاجر يقول : « لا يمكن ياهزاع . . متى سجلنا بيع الحاجة في هذا السجل ، فان الرجوع عن البيع يصبح مستحيلا . وها أنذا ، كما رأيت ، قد سجلت بيع هذه القماشة وانتهى الامر . كان عليك التراجع قبل تسجيلها . » نعم . . انه السجل . فالموت ايضا - كما يقولون - لديه سجل ضخم ، يسجل فيه كل مولود ، ويشطب فيه على اسم كل حي حالما يستولي عليه الموت ، ذو الفم الكبير ، النهم الذي لا يشبعه العالم كله .

. . .

عند صلاة الظهر بدات مراسم الدفن ، وانتهت بعد دقائق قليلة . مراسم بسيطة ، لان سالم لم يكن أكثر من طفل صغير في شهره الخامس . والناس لديهم حجتهم ، حينما لا يكون الطفل ابنهم . . . يقولون لهزاع السالم : « سعيد من مات طفلا . الاطفال طيور الجنة . لا يتلكأون في قبورهم ليلة واحدة ، فهم يصعدون مباشرة الى السماء ، دون حساب . انهم ابرياء ، خرجوا من الدنيا كما دخلوها ، لم يتلوثوا ولم يثقل أرواحهم أي ذنب . » .

كان هزاع السالم نفسه قد آمن من قبل بهذا الاعتقاد ، وطالما

ساقه عزاءً لكل رجل مات طفل له . كان ذلك قبل أن تملأ قلبه سعادة تلك الساعة التي زغردت فيها النساء وبشرنه بأبوته : « ابشر يا ابن سالم ، انه غلام . » . كانت سعادة غامرة ، ولم تكن مألوفة .. سعادة من نوع خاص ، بدلت لون الدنيا وطعمها ، ولم يعد لفظاظة العالم وقسوة العيش تلك العبثية التي لا ينفع الاشقياء فيها عزاء من اي مصدر . صار لكل ذلك معنى ، وكانت رؤية الولد في ذاتها مكافأة عظمى . والآن .. ها هو الولد ، مدفونا في التراب ، هيكلا جامدا دون حياة ، ولم يكن ليستطيع ان يتعزى أيضا بأن يقنع نفسه بأن ذلك كله كان وهما أو ما يشبه الوهم ، كان لديه طفل ، واستلب منه قبل أن يرى خيره من شره ، قبل ان يراه راكضا في الحقل على ساقيه الصغيرتين ! هذه حقيقة . والعزاء ، اي عزاء ، لا يمكن ان يلغي ما هو حقيقي أو يموهه .

كانت ثرثرة الرجال لا تنقطع ، وهم يحيطون بهزاع السالم ، في باحة بيته . بهذه الثرثرة ، وبكل هذه الحكايات عن الموت والقضاء والقدر ، عن حتمية النهاية على هذا الوجه أو ذاك ، هم يريدون تسليته .. أن يشعر أقل بوطء الفاجعة ، وأن يفكر اقل بقسوة الموت ، وأن يبذل جهدا أقل في الاخير ليقتنع بأن الحياة هي هكذا : ولادة وموت ، من أجل تجدد وتفتح مستمر ، انه ناموس الكون ، ولولا ذلك لفقدت الحياة نضارتها وتفسخت منذ زمن طويل .

وقد حملق هزاع السالم بوجوه معزيه جميعا ، حاول أن يقف على ملامح وجه واحد تدل على هذه النضارة ، نضارة الحياة التي يتحدثون عنها ، فرأى أن الوضع تحول الى مسخرة ، بعد هذه النظرة الفاحصة . تصور ميتا يتحدث عن جمال الموت ، أو نعجة

يمزق جسدها ذئب تتغزل بأنيابه الحادة المغروزة في لحمهاوعينيه المحمرتين بدم الشهوة الشرسة !

وفي هذا الوقت ، كان نواح ليّن ومسالم ، مثل عبرات ناي مراقيئة في اعماق الحقول ، يصل الى حلقة الرجال في الحوش ، من داخل الكوخ المظلم الذي ام يشعل فيه الضوء حتى الآن . انه صوت مقبولة .. فهي امرأة ، يمكنها البكاء قدر ما تشاء . انها هي الاخرى محاطة بهذه العناية الطيبة ، فثمة في الكوخ عدد من النساء لا يقل عن عدد الرجال دنا . ولكن النساء أعمق حسا بالفاجعة ... لذا فانهن لا يستطعن ان يعزين مقبولة بالطريقة نفسها التي يعزيه بها الرجال . انهن يبكين معها حين تبكي ، ويضربن صدورهن حين تضرب ، ويصمتن حالما تصمت ، ليحملقن معها في منتصف الحجرة، بعيون جعلتها الدموع أكثر لمعانا ، وأنقى لونا ، وجعلها شبح الموت جامدة النظرة ، ذاهلة ، فغدت مثل كريات بلورية .

وقبل ان يسحب هزاع السالم أفكاره من داخل الكوخ ويعود الى ما يجري حوله ، في الحوش ، انقطع النواح فجأة ، وبدرت آهات مجرئحة ، مثل حشرجة ، لم يتبين هويتها تماما وان كان قد ملأه احساس غامض بأنها صادرة عن مقبولة . وتلا هذا في الحال صرختان من امراتين أخريتين على التوالي ، ثم صياح مختلط يوحي بأن حادثا غير عادي يجري هناك .

انتبه جميع الرجال ، سكتوا ، وحدقوا الى فوهة الكوخ السوداء . عندئذ تأكد هزاع من ان ذلك واقع وليس تشوشا في مخه . هب مندفعا داخل الكوخ ، وقد ملأت مقبولة احساسه الآن ، احساسا مخيفا ، تطيَّرت له نفسه وهلعت .

كانت مقبولة ممددة على الارض ، في وضع من عانى مغصا حادا في جوفه ، تحيط بها النساء واقفات أو مقرفصات ، مذعورات تدور أعينهن ، همساتهن تنم على حيرة .

كانت ظلمة الكوخ لا تساعد على رؤية واضحة . تساءل هزاع :

ـ ماذا جرى لها ؟

وسمع من تقول :

ـ لا بد ان يكون هذا بسبب التأثر . دعوها تشرب مغلي الزهورات وترتاح .. هذا ما يلزمها .

ولا بد أن احداهن قد عنيت باشعال مصباح الزيت ، فقد انتشر ضوء خفيف ، شرع يقوى بسرعة حتى اصبح كافيا للرؤية . وتقدمت المراة بالمصباح نحو مقبولة ، حتى غمرها الضوء ، ورأى هزاع وجهها بوضوح . انه اشد شحوبا وامتقاعا . لكن ذلك الجمود الذي يبس ملامحه كان مختفيا الآن ، غدت ملامحها حيوية ، رغم ما يبدو عليها من دليل معاناة الم حاد .

وانتبه الى امرأة تقرفص جنبها ، تسأل بصوت عطوف ويكاد لا يسمع :

ـ أين بالضبط ؟

انها سعدية العجوز . وأجابت مقبولة بهمس :

ـ انه هنـا .

وقد حطت بكفها على الجزء الاسفل من بطنها .

قالت العجوز بثقة كاملة :

ـ هذا هو الامر اذن . بالضبط . كما خمنت من البداية . ولهذا يجب أن تستريحي تماما ، لا تجعلي حزنك على طفلك الاول يقتل طفلك الثاني .

وبينما سرت همهمة نشطة بين النساء ، كان هزاع يخرج من الكوخ الى باحة الحوش . ورأى الرجال ينظرون اليه بقلق . ثم رأى القلق في عيونهم يتطامن ، ويكاد يتحول الى تعجب . رأوا وجهه ولا ريب . انه يخمن ان وجهه لا يبدو الآن كما دخل به الى الكوخ . وأحس بأنه يجب ان يقول لهم شيئا ينهي انتظارهم القلق . ولكنه فضل ان يخبرهم وهو جالس . انه يحس بالتعب .

جلس هزاع السالم ، مطرقا ، متعجبا من هذه الدنيا . وبعد لحظات ، رفع عينيه ، الى الوجوه المحيطة به ، وقال ، بلهجة تكاد تكون حيادية :

ـ انها مقبولة .. يبدو أنها حامل .

واطرق . ووسط الهمهمة التي أحدثها الخبر بين الرجال ، اخذ هزاع السالم يفكر بالحاح : « لا بد من توفير الراحة الكاملة لمقبولة . » ووراء هذه الفكرة التي سيطرت عليه وافرغت رأسه من كل فكرة عداها ، طفا من أعماقه شعور قديم ، كاد يعتقد بأنه تلاشى منذ خمسة اشهر واندثر ، انه ذلك الشعور نفسه الذي دفعه للزواج من مقبولة ذات يوم ... انه يحبها .

دمشق ١٩٧٠